سمات
الإنعام والانتقام الدنيويين
في القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور
محمد عطا أحمد يوسف

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net

سمات الإنعام والانتقام الدنيويين في القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور

محمد عطا أحمد يوسف

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الآداب-جامعة طنطا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فمن الموضوعات البارزة في القرآن الكريم موضوع "**الإنعام والانتقام**" لأنه يتبدى في صور عدة، فمرة يتبدى في صورة التاريخ الإنساني والأيام الإلهية، ومرة يتبدى في ثوب الثواب والعقاب، ومرة ثالثة نراه يتبدى في الحديث عن الحسنة والسيئة، أو في الحديث عن الوعد والوعيد، وربما ظهر في صورة رابعة كالموعظة المباشرة، والعبرة الواضحة.

ومن بين هذه الصور تخيرت صورة الإنعام والانتقام الدنيويين في القرآن الكريم، وذلك لأسباب منها: أنه لا بدَّ للناظر في القرآن الكريم كما يرى العلماء: (مِنَ النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومن اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعزة وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر)(١).

ولأن الإنعام والانتقام الدنيويين فيهما آيات بينات لذوي الألباب على القدرة الإلهية على محاسبة البشر إذا طغوا وبغوا وتجبروا، وفيهما كشف عما يحويه التاريخ الإنساني من عبر وعظات لأمتنا الإسلامية.

كما أن الإنعام والانتقام الدنيويين في القرآن الكريم لا يقتصران على أمة دون أمة ولا قوم دون قوم، وإنما هو بمثابة المدرسة الربانية التي لابد للبشر من دخولها واجتياز ما فيها من مراحل، فمنذ آدم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وسنن الله في إنعامه وفي انتقامه سارية لا تتوقف، فإن أنعم الله عليهم فبرحمته، وإن انتقم منهم فبعدله.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار . محمد رشيد رضا . دار المعارف . بيروت . لبنان . د.ت.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم إن حديث القرآن الكريم عن الإنعام والانتقام الأخرويين لا يمكن تناولهما في بحث كهذا لاتساعهما وتعدد جوانبهما وكثرة تناولهما في كتب الرقائق وغيرها، واحتياجهما إلى عدة أبحاث مطولة.

وعندما شرعت في بحث موضوع الإنعام والانتقام الدنيويين في القرآن الكريم وجدت أن ما من أمة ذكرت في القرآن الكريم من آدم إلى أمة محمد إلا وقد جرت عليها سنة الإنعام والانتقام، بل وجدتُ أن دراسة أحوال الأمة الإسلامية بصفة خاصة بين الإنعام والانتقام الدنيويين من الدراسات الضرورية التي تحتاجها الأمة الإسلامية الآن بصورة ماسة، ولذلك آثرت أن يكون ذلك في بحث خاص.

ولعل هذا البحث يكشف بدقة عن سمات الإنعام والانتقام الدنيويين في القرآن الكريم، ويبين أنواعهما، ويكشف عن موقف الإنسان تجاههما، وكل ذلك من خلال ما نطقت به الآيات القرآنية، وما تحدث به المفسرون في بيانها.

ثم إنه يظهر لنا بجلاء أن الله لا يحابي في سننه التي لا تتبدل ولا تتغير أحدًا من خلقه، وأن على الأمة الإسلامية أن تكف عن دعاواها بالفخر والتفاخر بما كان في الماضي، وأن تنظر في ماضيها نظرة اعتبار، وفي حاضرها نظرة استبصار، وفي مستقبلها نظرة استبيان واستلهام، لترى هل لازالت في حالة الإنعام الإلهي؟ وهل لازالت خير أمة أخرجت للناس؟ وهل لازالت هي الأمة الوسط التي تُخرج الناس من الظلمات إلى النور؟ أم أنها في حالة الانتقام الإلهي؟ وأن عليها أن تراجع دينها وعلاقتها بربها؟

وبعد هذه المقدمة أتى هذا البحث في ثلاثة مباحث وخاتمة:

أما **المبحث الأول**: فقد جعلته عن سمات الإنعام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم، وتناولت فيه معنى الإنعام لغة واصطلاحًا، وأقسام الإنعام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم، وأتبعت ذلك ببيان السمات العامة للإنعام الدنيوي في القرآن الكريم.

والمبحث الثاني: جعلته عن سمات الانتقام الدنيوي في القرآن الكريم، وتناولت فيه معنى الانتقام في القرآن لغة واصطلاحًا، وأتبعته ببيان أسباب الانتقام، وبينت أقسام الانتقام، وأنواعه، وسماته في القرآن الكريم.

والمبحث الثالث: جعلته عن موقف الإنسان من الإنعام والانتقام الدنيويين كما جاءت في آيات القرآن الكريم.

ثم **الخاتمة:** وفيها بيان لأهم ما توصل إليه البحث من نتائج، والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم.

وعلى الله قصد السبيل

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبحث الأول
سمات الإنعام في القرآن الكريم

◊ أولا: الإنعام لغة واصطلاحا:

الإنعام: بكسر الهمز، من قولهم: (نِعمة بكسر النون اسم من أنعَم الله عليه إنعامًا، ونعمةً، أقيم الاسم مقام الإنعام، كقولك: أنفقت عليه إنفاقًا ونفقةً بمعنى واحد)(١).

وهذا يعني أن النعمة بمعنى الإنعام في رأي ابن منظور، ودليله على ذلك قول بعض العلماء في تفسيرهم لقوله تعالى: {مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ} [سورة القلم:٢]. أي: (ما أنت بإنعام الله عليك، وحمدك إياه على نعمته بمجنون)(٢).

ورأي المناوي كرأي ابن منظور أيضا، ودليله قولهم: (إن الإنعام هو النفع العام الذي يستحق به المنعم الشكر، وأصله من النعمة... إلخ)(٣).

وهو معنى كلام ابن شهاب الدين المصري: (الإنعام ما يظهر أثره على صاحبه)(٤).

وأورد المنذري في الترغيب والترهيب معنى آخر للإنعام، وهو (البلاء) مستدلا على ذلك بما جاء في الحديث: (مَنْ أولي معروفًا فلم يجد إلا الثناء فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلَّى بباطل فهو كلابس ثوبي زور)، وفي رواية: (من أبلي فذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره)، ثم عقب بقوله: (من أبلي: أي من أنعم عليه، والبلاء: الإنعام)(٥).

---

(١) لسان العرب لمحمد بن منظور ٥٨١/١٢ . دار صادر . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى . د٠ت.

(٢) المصدر السابق ٥٨١/١٢.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ١/ ٧٠٣ . تحقيق د/محمد رضوان . دار الفكر . دمشق . الطبعة الأولى . ١٤١٠هـ.

(٤) التبيان في تفسير غريب القرآن . شهاب الدين الهائم المصري ٥٢/١ . تحقيق د/ فتحي أنور الدابولي . دار الصحابة . مصر . الطبعة الأولى . ١٩٩٣م.

(٥) الترغيب والترهيب للمنذري . ٢/ ٤٥ حديث رقم [١٤٣٤] . القاهرة . المكتبة الأزهرية . القاهرة . د٠ت، والألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة ٢١٨/١ باب النعمة . محمد بن عبد الملك الطائي . تحقيق د/ محمد حسن عواد . دار الجيل . بيروت . الطبعة الأولى . ١٤١١هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وللبيضاوي عبارة أكثر تحديدًا لمعنى الإنعام يقول فيها: (الإنعام: إيصال النعمة، وهي في الأصل الحالة التي يستلذها الإنسان، فأطلقت لما يستلذه من النعمة وهي اللين)(١).

ومع الفارق الدقيق بين الإنعام الذي هو بمعنى النعمة، والإنعام الذي هو بمعنى الإيصال للنعمة، حيث إن المعنى الأول ينصَبُّ على النعمة نفسها، والمعنى الثاني ينصرف إلى الواسطة بين المنعِم والمنعَم عليه؛ فإنني أرجِّح أن الإنعام بمعنى النعمة، وذلك أخذًا بقول ابن منظور، والمناوي، وشهاب الدين المصري(٢). وأما ما قاله البيضاوي فإنه ينصرف إلى المعنى الاصطلاحي للإنعام.

ومن العلماء من عرَّف الإنعام والنعمة اصطلاحًا من خلال إضافتهما لله؛ فقالوا: (نعمة الله بكسر النون مَنُّه، وما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه، كالسمع والبصر، ومنه قوله تعالى: {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً} [سورة لقمان:٢٠]. فالمراد جميع ما أنعم الله به عليهم)(٣).

ومن الملاحظ أن كلمة النعيم غالبًا ما تطلق في القرآن الكريم على النعيم الأخروي، وأما الإنعام فغالبًا ما يطلق على الإنعام الدنيوي.

وأما الإنعام – بفتح الهمز – فهي الحيوانات التي خلقها الله، وجعلها مُسَخَّرَةً لبني الإنسان، وجعلها من بين نعمه التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: {وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} {وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [سورة النحل:٥: ٨].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١/ ٥٧. تحقيق عبد القادر حسونة . دار الفكر . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى . ١٤١٦هـ.

(٢) لسان العرب ٥٨١/١٢، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ١/ ٧٠٣، والتبيان في غريب القرآن ١/ ٥٢.

(٣) لسان العرب ٥٨٠/١٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وللمفسرين كلام طويل في بيان أنواعها وأصنافها(١).

وقد يجمع الله في القرآن بين الإنعام بمعنى النعمة والإنعام بمعنى الحيوانات المُسَخَّرة في موضع واحد، كقوله تعالى في سورة الزخرف: {وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ} [سورة الزخرف: ١٢ - ١٣].

ويكفي أن في القرآن سورة من السبع الطوال تسمى سورة الإنعام(٢). ولعله من الواضح أن أغلب ما ذكرناه من معان للإنعام تدور حول الإنعام الدنيوي.

◊ ثانيا: أقسام الإنعام في القرآن الكريم.

في القرآن الكريم نجد كثيرًا من المقابلة بين الإنعام الدنيوي، والإنعام الأخروي، ففي سورة آل عمران نجد قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ} [سورة آل عمران:١٤].

فهذه صور من الإنعام الدنيوي نجدها في مقابل الإنعام الأخروي المذكور في الآية التالية لها وهي قوله تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ} [سورة آل عمران:١٥].

ومن هذه المقابلات يمكن لنا أن نميز بين قسمين كبيرين من أقسام الإنعام في القرآن الكريم:

---

(١) راجع جامع البيان عن تأويل القرآن، للطبري ٣/ ١٣٣، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٤١٣ هـ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٣٣/١ . دار الحديث . القاهرة . الطبعة الثانية . ١٤١٠ هـ، وفتح القدير . للشوكاني ١/ ٤٠١ . دار الوفاء . مصر، لطبعة الأولى . ١٤١٥ هـ.

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٦٧. تحقيق فواز أحمد زمرلي . دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى . ١٤٢٤ هـ.

❁ القسم الأول: الإنعام الأخروي، وهو ما أعده الله لعباده المؤمنين من غفران للذنوب، وستر للعيوب، ومن نعيم في جناته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأعلى درجاته النظر لوجه الله الكريم وإحلال رضوانه على المؤمنين، وفي معظم سور القرآن ذِكْرٌ لهذا القسم من الإنعام وبيانٌ لأنواعه وأصنافه، وفي بيانه يقول البيضاوي: (والإنعام الأخروي على العبد هو أن يغفر له ما فرط منه، ويرضى عنه، ويبوئه أعلى عليين مع الملائكة المقربين)(١).

وهذا القسم لا نتناوله في بحثنا هذا لاتساعه وحاجته إلى كتب مطولة.

❁ **القسم الثاني: الإنعام الدنيوي في القرآن الكريم.**

كثيرا ما يتبدى حديث القرآن الكريم عن الإنعام الدنيوي في الآيات التي تتناول الجزاء على الأعمال الإنسانية ثوابًا وعقابًا، ولذا يقول الدكتور أحمد الحوفي: (إنه ليسترعي أنظار الذين يقرأون القرآن أو يستمعون إليه أن الجزاء ثوابا وعقابا ليس مقصورا على الدار الآخرة في الجنة، أو في النار كما يفهم كثير من الناس، بل إن في الحياة الدنيا ثوابا عاجلا لا شك فيه، وإن في الحياة الدنيا عقابا واقعا لا مرية فيه، ولن يغني هذا أو ذاك عما في الآخرة من ثواب وعقاب)(٢).

وفي كلام الدكتور الحوفي دليل واضح على أن الإنعام في القرآن أنواع، وأن من أنواعه ما يقع في الدنيا، أو ما أسميناه بالإنعام الدنيوي.

وهذا النوع أعني الإنعام الدنيوي ورد ذكره في القرآن الكريم كثيرًا، وحددت بعض الآيات القرآنية أقسامه إلى قسمين: الإنعام الظاهر، والإنعام الباطن.

◊ فأما الإنعام الظاهر فمذكور في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} [سورة لقمان:٢٠].

ولم يختلف العلماء في بيان ما ذكره الله من أنواع النعم التي منحها للإنسان في – هذه الآية – مما في السموات من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتسوق إليهم منافعهم. وما

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ١/ ٧٥.

(٢) مع القرآن صـ٢٠٦. د/ أحمد الحوفي. مكتبة نهضة مصر. مصر. ١٣٩١ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في الأرض من الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى. وأنه سبحانه أكمل علينا نعمه وأتمها، وأن نعمه الدنيوية هذه: (ظاهرة وباطنة) أي قسم منها ظاهر، وقسم منها باطن، إلا أنهم اختلفوا في بيان هذين القسمين:

* فابن عباس يرى أن النعم الظاهرة هي الإسلام، وفي رواية عنه أنها لا إله إلا الله، ويأخذ النحاس برأي ابن عباس فيرى أن النعمة الظاهرة: الإسلام، ويرجحه بدليلين:

الدليل الأول: قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية فقال: (الظاهرة الإسلام وما حسن من خلقك، والباطنة ما ستر عليك من سيء عملك).

والدليل الثاني: قول سعيد بن جبير في قول الله عزَّ وجلَّ: {يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ} [سورة المائدة:٦] قال: يدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عزَّ وجلَّ على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لما كان الإسلام يؤول أمره إلى الجنة سمي نعمة)(١)، ويأخذ العلماء على هذا الرأي أن الحديث الذي احتج به النحاس ضعيف(٢).

* وقال المحاسبي: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم العقبى(٣)، وقول المحاسبي هذا يخلط بين الإنعام الدنيوي والأخروي، وسياق الآية في الإنعام الدنيوي.

* **ويرى البيضاوي أن** (الإنعام الدنيوي قسمان: وهبي وكسبي، والوهبي قسمان: روحاني كنفخ الروح في الإنسان، ومنحِهِ العقل وما يتبعه من القوى كالفهم، والفكر، والنطق. وجسماني كتخليق البدن والقوى، والهيئات العارضة من الصحة وكمال الأعضاء)(٤).

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/ ٢٣٥.

(٢) الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٤١٨٥)وإسناده ضعيف؛ لأن فيه محمد بن عبد الرحمن بن محمد قال عنه الدارقطني: (متروك هو وأبوه وجده) راجع لسان الميزان ٢٥٥/٥، ولهذا الحديث رواية ثانية ضعيفة أيضا أخرجها البيهقي عن روح بن عبد الواحد وهو ضعيف كما في لسان الميزان ٤٦٦/٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٩/١٤.

(٤) تفسير البيضاوي ١/ ٧٥، ونقل أبو السعود في تفسيره كلام البيضاوي في بيانه لمعنى الإنعام والنعمة، راجع إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الحكيم ١٨/١ لأبى السعود . دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان . د.ت

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا المعنى الذي ساقه البيضاوي يميل به إلى الناحية الفلسفية وكثرة التقاسيم، وهو لا يخرج في معناه عن الإنعام في ذات الإنسان إما مادي وإما معنوي.

***وذكر القرطبي والشوكاني** أقوالا أخرى لم ينسباها لأحد، منها: (والنعمة إما دينية وهي معرفة الحق لذاته، ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإما دنيوية نفسانية، أو بدنية أو خارجية كالسعادات المالية وغيرها، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، وقيل: الظاهرة ما يُرَى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين، وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات، وقيل: الظاهرة الصحة وكمال الخلق، والباطنة المعرفة والعقل)(١).

ومن الملاحظ أن هذه الأقوال متداخلة بين العموم والخصوص، وبين المادي والمعنوي، وبين الظاهر والباطن من أقسام الإنعام الدنيوي، والنفس تميل إلى الرأي الأول الذي قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأخذ به النحاس، وبخاصة في بيان الإنعام الظاهر أنه الإسلام، وذلك لأسباب:

١. إن الله سبحانه وتعالى قد امتن في سورة الأحزاب على زيد بن حارثة بنعمتين فقال: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ} [سورة الأحزاب:٣٧].

فالنعمة الأولى هي الإسلام، والنعمة الثانية هي العتق، وقد أجمع المفسرون على ذلك مستدلين بما صح عن السيدة عائشة رضى الله عنها في تفسيرها للآية بقولها: (أنعم الله عليه) بالإسلام، و(أنعمت عليه) بالعتق)(٢).

٢. إن الحديث الضعيف الذي احتج به النحاس آنفا على بيان "أن الإسلام هو الإنعام الظاهر" يمكن الاستدلال به في فضائل الأعمال(٣) ولا يشك مسلم في أن الإسلام من نعم الله على البشرية جميعا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦٩/١٤، وفتح القدير ٤/ ٢٣٤(بتصرف).

(٢) سنن الترمذي باب التفسير الحديث رقم (٣٢٠٧)، ورقم (٣٢٠٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح . دار المعرفة . بيروت . لبنان . د٠ت وأخرجه الطبري في جامع البيان ١١/٢٢ والطبراني في الكبير ٤١/٢٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣. كما أن ما قاله سعيد بن جبير رضى الله عنه استنباط جيد يتفق مع مقتضيات الشرع والعقل.

وأما الإنعام الباطن:

فإنه مذكور في الآية السابقة أيضا في قوله: {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً} [سورة لقمان:٢٠].

وقد عدد العلماء المقصود بنعم الله الباطنة المذكورة في الآية فقالوا: (إنها ما ستر الله من سيء الأعمال، وما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين، وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات، أو هي المعرفة والعقل)، ومن الملاحظ أن نعم الله التي ذكرها العلماء في القسم الباطن منها ما يتعلق بدين الإنسان: كالعلم بالله، وحسن اليقين، وستر الأعمال السيئة، ومنها ما يتعلق بدنياه كدفع الآفات، ومنها ما يتعلق بالأمرين معا كالمعرفة والعقل(١).

ولا يعني ذكرنا لأقسام الإنعام الدنيوي حصرا لأنواعه؛ فإن نعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى، كما سنرى في سماته.

◊ ثالثا: السمات العامة للإنعام الدنيوي في القرآن الكريم.

في القرآن الكريم آيات جامعة لهذه السمات، تتميز دون سواها بالإيجاز الشديد في ألفاظها، والدلالات المتعددة في معانيها، ومن هذه الآيات يمكن أن نرصد أهم سمات الإنعام في القرآن الكريم فيما يلي:

◊ السمة الأولى:

إن النعم كلها سواء كانت ظاهرة أو باطنة، كونية أو بشرية، مادية أو معنوية ليس لها سوى مصدر واحد فقط هو الله سبحانه، يتجلى ذلك في قوله تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ} [سورة النحل:٥٣] فهذه الآية أتت على سبيل الحصر لتحدد مصدر النعم وهو الله سبحانه وتعالى، يقول القرطبي: (قوله تعالى: "وما بكم من نعمة فمن الله" (ما) بمعنى الجزاء. والباء في (بكم)

---

(٣) راجع تيسير مصطلح الحديث د محمود الطحان صـ ٦٥. دار المعارف . الرياض . الطبعة التاسعة . ١٤١٧ هـ.

(١) راجع ما سبق من كلام القرطبي ٦٩/١٤، والشوكاني ٢٣٤/٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

متعلقة بفعل مضمر تقديره: وما يكن بكم. "من نعمة" أي صحة جسم، وسعة رزق وولد فمن الله. وقيل: المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي)(١).

وأما الشوكاني فقد جعل (ما) في الآية شرطية، وكان في تفسيره أكثر بيانا لأقسام النعم التي سبق الحديث عنها حيث يقول: (أي ما يلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله: أي فهي منه، فتكون ما شرطية، ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط، والنعمة: إما دينية وهي معرفة الحق لذاته، ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإما دنيوية نفسانية، أو بدنية أو خارجية كالسعادات المالية وغيرها، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، والكل من الله سبحانه فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه)(٢).

وربما قال قائل: فما بال ملوك الدنيا، إنهم يملكون شيئا من الإنعام، كإجراء الأرزاق على من حولهم من رعاياهم؟

والجواب: إن ما يمتلكه ملوك البشر من النعم في الحياة الدنيا إنما هو استخلاف من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الملوك، فإن أحسنوا وشكروا فلهم من الله الزيادة والتمكين، والتمتع بها إلى حين، وإن جحدوا وكفروا فقد استجلبوا بذلك غضب الله وانتقامه، قال تعالى: {قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ} [سورة آل عمران:٢٦].

فالملك لله يعطيه من يشاء من عبيده، فقد انتقل الملك من قياصرة الروم، وأكاسرة الفرس لما كفروا وظلموا وطغوا وتجبروا إلى المسلمين لما آمنوا وعدلوا، قال ابن عباس في سبب نزول هذه الآية: (لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعد أمته ملكَ فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد صلى الله عليه وسلم ملك فارس والروم؟ وهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٠٢.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٢٤٢/٣ للشوكاني . دار الوفاء . مصر . الطبعة الأولى . ١٤١٥ هـ (بتصرف).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمدًا مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم؟ فأنزل الله هذه الآية)[١].

وقال البغوي جاء في الأثر: (قال الله تعالى: أنا الله ملك الملوك، ومالك الملوك وقلوب الملوك ونواصيهم بيدي فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة وإن عصوني جعلتهم عليهم عقوبة)[٢].

وأما قوله تعالى: {وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ} قال عطاء تعز من تشاء: (المهاجرين والأنصار، وتذل من تشاء: فارس والروم. وقيل: تعز من تشاء محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها، وتذل من تشاء: أبا جهل وأصحابه حتى حزت رؤوسهم وألقوا في القليب)[٣]، وهذا القول فيه تخصيص لعموم الآية، والعبرة عند العلماء بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.[٤]، ثم إن الملك قد زال من أيدي المسلمين في الأندلس وفي غيرها بعد قرون من تملكهم لما فرطوا شيئا فشيئا في أمر دينهم.

(وقيل تعز من تشاء بالإيمان والهداية، وتذل من تشاء بالكفر والضلالة، وقيل تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية، وقيل تعز من تشاء بالنصر وتذل من تشاء بالقهر، وقيل تعز من تشاء بالغنى وتذل من تشاء بالفقر، وقيل تعز من تشاء بالقناعة والرضى، وتذل من تشاء بالحرص)[٥].

فكل هذه الأقوال: الخاص منها والعام يبين بوضوح أن مصدر الإنعام هو الله وحده لا أحد سواه.

---

(١) أسباب النزول للواحدي صـ٨٤،٨٥، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي١/٣٦٨ . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . لبنان ١٤١٤ هـ.

(٢) معالم التنزيل للبغوي ١/ ٢٣.

(٣) جامع البيان ٣/١٤٨.

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي صـ ٥١٢. تحقيق فؤاد زمرلي . دار الكتاب العربي . الطبعة الأولى . ١٤٢٤ هـ.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/٥٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغرس هذه السمة في نفوس المسلمين ويربيهم عليهم، وبخاصة في نفوس الناشئة منهم، ففي وصيته لعبد الله بن عباس . وهو غلام . يقول له: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك...ثم يقول له: واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك...)(١) فالنفع بيد الله لا بيد غيره، والنفع كلمة عامة تشمل كل ما ينتفع به الإنسان في حياته ومعاده، أو هو النعمة العامة الشاملة.

◊ **السمة الثانية:**

إن الله سبحانه وتعالى بين في القرآن الكريم أن نعمه على خلقه لا تعد ولا تحصى، فقال في آية جامعة: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ} [سورة النحل:١٨].

ووضوح هذه الآية في معناها ومبناها يجعل هذه السمة من سمات الإنعام تكتسب وضوحا يصل بها إلى حد البداهة، فإحصاء النعم الإلهية أمر تعجز حياله العقول، وتحار في شأنه الألباب، ومن خلال أقوال المفسرين في بيان هذه الآية يمكننا أن نسجل عدة ملاحظات:

❁ إن هذه الآية ذكرت في سورة النحل، وهي التي يسميها المفسرون سورة النعم كما سبق أن أشرنا(٢).

❁ إنها جاءت بعد سبع عشرة آية تناولت مجالات عديدة من الإنعام الإلهي على البشر، ففيها بيان لأعظم نعم الله على البشر وهي نزول القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: {يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ} [سورة النحل:٢]. ففي هذه الآية الكريمة بيان لأُولَى النِّعمِ وأعظمها، وهي نعمة توحيد الله تعالى التي أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم في آية أخرى بشكرها فقال عز من قائل: {وَقُلِ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه باب القيامة حديث رقم (٥٩) راجع سنن الترمذي . تحقيق أحمد شاكر . مطبعة الأزهر . القاهرة . ١٣٥٠ هـ وقال: حديث حسن صحيح والإمام أحمد في المسند ١/ ٢٩٣، ٣٠٣. راجع المسند للإمام أحمد . طبعة إحياء الكتب العربية . بيروت . لبنان . د.ت.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦١/١٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [سورة الإسراء:١١١].

وبعد هذه النعمة العظيمة تناولت الآيات في سورة النحل نعما أخرى:

منها الحديث عن الإنعام وما فيها من منافع لبني الإنسان، والحديث عما أنزله الله من السماء من ماء أنبت شتى الزروع والثمار، وعن تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، ثم تسخير البحار لتكون سبلا ممهدة للفلك التي تحمل الأثقال، ثم الحديث عن الجبال وما فيها نعمة المحافظة على توازن الأرض وتثبيتها على هيئتها الصالحة لحياة الإنسان، وبعد ذكر كل هذه النعم الإلهية . في سورة النحل . أتى قوله تعالى: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ} للتنبيه على أن ما ذكر في هذا الموضع ما هو إلا غيض من فيض، وقليل من كثير ٠ولذلك ختم هذه الآية بقوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} ليبين أن الإنسان سيعجز قطعا عن إحصاء النعم الإلهية، بل وسيعجز عن القيام بشكرها، ولكن الله الغفور الرحيم سيعفو عن عجز الإنسان هذا. وفي هذا المعنى يقول البيضاوي: ("وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها" لا تضبطوا عددها فضلًا أن يطيقوا القيام بشكرها، أتبع ذلك تعداد النعم، وإلزام الحجة على تفرده باستحقاق العبادة تنبيها على أن وراء ما عدد نعمًا لا تنحصر، وأن حق عبادته على غير مقدور. "إن الله لغفور" حيث يتجاوز عن تقصير في أداء شكرها "رحيم" لا يقطعها لتفريطكم فيه، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها)(١).

* وهذه الآيات . الواردة في صدر سورة النحل . التي تضمنت بعض النعم الإلهية الدنيوية الظاهرة وبخاصة من الآية الخامسة حتى الآية الثامنة عشرة أتت بعد قوله تعالى: {خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾} [سورة النحل:٤].

وتلك آية من الآيات العامة التي تبين صفة من الصفات الإنسانية، وهي جحود الإنسان للنعم ونسيان المنعم، حتى وإن قال بعض المفسرين أنها خاصة بسبب نزول معين؛ لأنها نزلت في شخص محدد وهو أبى بن خلف(٢)، إلا أنني أرجح ما ذهب إليه البغوي في ذلك حيث قال:

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٣٩١.

(٢) أسباب النزول . السيوطي . صـ ١٦٢. دار القلم . بيروت . لبنان . د٠ت.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(والصحيح أن الآية عامة، وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه، من جحد نعم الله مع ظهورها عليهم)(١).

وما أتى بعدها من آيات تعدد بعض نعم الله، وتقرر عجز الإنسان عن الإحاطة بها كانت بمثابة الرد على هذا الإنسان المخاصم المجادل.

*ولعل قائلا يقول: إن ما ذكره الله في الآيات في أوائل سورة النحل ليس من قبيل تعداد النعم الإلهية كما تزعم، وإنما هو من قبيل بيان العلامات الدالة على قدرته سبحانه في الخلق، بدليل قوله تعالى في نهاية هذا المقطع من الآيات: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [سورة النحل:١٧].

وقد تكفل الشوكاني في تفسيره بالرد على هذا القول فقال: (ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة إلى المكلفين نعم. قال: "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها"، قال العقلاء: إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنغص النعم على الإنسان، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يدير بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يطيق حصر بعض نعم الله عليه أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن من شكر أدناها؟) فإذا تأملنا قول الشوكاني: (ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة إلى المكلفين نعم) نرى أنه قد جعل الآيات المذكورة فيها نعم، ودلل على ذلك بما في جسم الإنسان نفسه من نعم لا يستطيع حصرها ولا شكر الله عليها، وختم تفسيره لهذه الآية بقوله: (وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيرًا إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال: "إن الله لغفور رحيم" أي كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه، والقصور عن إحصائها، والعجز عن القيام بأدناها، ومن رحمته إدامتها عليكم وإدرارها في كل لحظة وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها)(٢).

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٩/٢ (بتصرف).

(٢) فتح القدير ٢٢٠/٣.

◊ **السمة الثالثة:**

لا علاقة بين إنعام الله الدنيوي على عباده وبين طاعتهم أو معصيتهم، فكم نجد من الكافرين والعصاة ممن قد أفاض الله عليهم بالأرزاق والأموال دونما بركة فيها، فالله سبحانه ينعم على عباده . المؤمن منهم والكافر. بما يشاء دونما سبب منهم أصلا، وهذه السمة نجدها واضحة في قوله تعالى: {كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ} [سورة الإسراء:٢٠]. فالإمداد ههنا يفيد استمرار العطاء الإلهي للمؤمنين وللكافرين في الدنيا على السواء، يقول القرطبي في بيان ذلك: (قوله تعالى: "كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك" أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين. "وما كان عطاء ربك محظورا" أي محبوسا ممنوعا عن أحد)(١).

ولابن كثير في هذا المعنى بعض الزيادة والإيضاح إذ يقول: (يقول تعالى: "كلًا" أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الاخرة نمدهم فيما فيه "من عطاء ربك" أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلا ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد، ولهذا قال "وما كان عطاء ربك محظورًا" أي لا يمنعه أحد، ولا يرده راد)(٢).

وفي كلام الشوكاني نجد نصا واضحا على استمرارية الإنعام الإلهي الدنيوي وعدم تعلقه بطاعة العباد أو معصيتهم فيقول: (كل واحد من الفريقين نمد: أي نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع، نرزق المؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية، لا تؤثر معصية العاصي في قطع رزقه وما به الإمداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا، وما أنعم به في الأولى والأخرى على من يريد الآخرة، وفي قوله: "من عطاء ربك" إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل وهو متعلق بنمد "وما كان عطاء ربك محظورًا" أي ممنوعًا)(٣).

ومن كلام الشوكاني نزيد هذه السمة وضوحا، فالإنعام الإلهي في الدنيا لا يقتصر على فريق المؤمنين دون غيرهم، أو الطائعين دون سواهم، ومعصية العاصي لا تؤثر في الإنعام الإلهي الدنيوي عليه إلا بعدم البركة فيه، وأما المؤمن فالإنعام عليه ممتد من الدنيا إلى الآخرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠٧/١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٩/٣.

(٣) فتح القدير ٣١١/٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فلا يقتصر حظه من الإنعام على الدنيا وإنما ينال من الإنعام الأخروي أيضا، وكل ذلك تفضل من الله سبحانه وتعالى.

ويمكننا أن نعد كلام ابن تيمية حول هذه السمة أصلا واضحا في بيانها إذ يقول: (ونعم الله سبحانه وتعالى وإحسانه إلى عباده يقع ابتداء بلا سبب منهم أصلا، فهو ينعم بالعافية، والرزق، والنصر، وغير ذلك على من لم يعمل خيرا قط)(١).

ويتفرع عن هذه السمة أمور مهمة:

◊ **أولها:** أنه . ومع هذا الذي قررناه من خلال أقوال العلماء لبيان هذه السمة . لا بد أن ندرك أن الله سبحانه وتعالى كثيرا ما يلفت نظر المؤمنين في القرآن الكريم إلى أن الإنعام الأخروي هو أبقى لهم وأسمى منزلة وأعلى رتبة من الإنعام الدنيوي، يقول تعالى في هذا الصدد: {وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ} [سورة القصص:٦٠].

وفي سورة آل عمران . بعد أن ذكر سبحانه وتعالى عددا من النعم الدنيوية في قوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ} [سورة آل عمران:١٤].

قال: {قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ} [سورة آل عمران:١٥]. وهكذا في غير موضع من القرآن الكريم.

◊ **وثانيها:** إن الإنعام الدنيوي بكل أشكاله إلى نفاد، قال تعالى: {مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ} [سورة النحل:٩٦]. ولذا يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: (بين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتحول وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وفي بالعهد وثبت على العقد ولقد أحسن من قال:

المال ينفد حله وحرامه يوما وتبقى في غد آثامه
ليس التقي بمتق لإلهه حتى يطيب شرابه وطعامه

وقال آخر:

---

(١) الحسنة والسيئة لابن تيمية صـ٤٠. دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . د.ت.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فيء أظلك ثم آذن بالزوال(١)

◊ **وثالثها:** ولا يعني تميز الإنعام الأخروي وبقاؤه على الإنعام الدنيوي ونفاده أن المؤمنين بالله وبالنعيم الأخروي يعيشون في دنياهم تعساء بؤساء؛ وإنما جعل الله لهم بما قدر لهم من إنعام دنيوي . قليل أو كثير . حياة دنيوية طيبة، وذلك كما في قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة النحل:٩٧]. ففي الآية وعد من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين به بالحياة الدنيوية الطيبة، أي المشتملة على مقومات الحياة الكريمة، السعيدة العفيفة في كل جوانبها، ولن نخوض هنا في اختلاف المفسرين حول تخصيصها ببعض جوانب الحياة(٢) فالآية عامة ولا وجه لتخصيصها، وأولى ما يقال في بيانها ما قاله ابن كثير (والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت)(٣).

وعلى هذا القول بنى الأستاذ الإمام في تفسيره لهذه الآية أصلا وقاعدة فقال: (إن الأمم المهتدية بالدين تكون سعيدة بالنسبة إلى الأمم غير المهتدية باطراد، أما الأفراد فتكون سعادتهم حتى بالإضافة إلى غير المهتدين غير مطردة، فإن منهم من يصيبه من الأمراض وشدة الفقر والبؤس ما يكون أسوأ حالا من بعض غير المهتدين، إلا أن يعتبر في المقابلة بين كل فردين من المهتدين وغير المهتدين في كل جوانب الحياة، فحينئذ يكون المهتدي أسعد حالا من غير المهتدي؛ لأنه يكون أصبر على البؤس والضر من غير المهتدي)(٤).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/١٥٤.

(٢) راجع ما ذكره الطبري في جامع البيان ١٤/١١٥ من أقوال المفسرين كابن عباس، ومجاهد، وقتادة والضحاك وغيرهم.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٧٧

(٤) تفسير المنار ١/ ١١١، ٤٣٩ (بتصرف) وللاستزادة في بيان هذه السمة يمكن مراجعة الآيات الواردة في سورة سبأ ٣٤.٣٦، وتفسرها في روح المعاني للألوسي ج ٢٢/١٤٧،١٤٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

◊ السمة الرابعة:

ومن سنن الله في نعمه أن من يمن الله عليه بنعمة الإسلام والإيمان به يحرم عليه تبديلها بضدها، فمن أنعم الله عليه بالإسلام يحرم عليه الكفر، فمن فعل ذلك فقد استحق عقاب الله تعالى وانتقامه، قال تعالى: {سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ} [سورة البقرة:٢١١].

وحول هذه الآية التي جعلناها أصلا لهذه السمة دار الخلاف بين المفسرين:

فمنهم من رأى أن هذه الآية خاصة ببني إسرائيل، ووجه تفسيرها على ذلك كالبغوي الذي قال: (سل يا محمد يهود المدينة كم أعطينا آباءهم وأسلافهم من دلالة واضحة على نبوة موسى عليه السلام، مثل العصا واليد البيضاء، وفلق البحر وغيرها. ومن يغير كتاب الله، وقيل: عهد الله، وقيل: من ينكر الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب)(١).

ولهذا الرأي ذهب البيضاوي فقال: (في الآية أمر للرسول ‘، أو لكل أحد والمراد بهذا السؤال تقريعهم كم آتيناهم من معجزة ظاهرة، أو آية في الكتب شاهدة على الحق والصواب على أيدي الأنبياء، "ومن يبدل نعمة الله" أي آيات الله فإنها سبب الهدى الذي هو أجل النعم، فيجعلها سبب الضلالة وازدياد الرجس، أو بالتحريف والتأمل الزائغ من بعد ما وصلت إليه وتمكن من معرفتها. وفيه تعريض بأنهم بدلوها بعد ما عقلوها فإن الله شديد العقاب " فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة.) وإلى هذا ذهب ابن كثير في تفسيره(٢).

وهذا الرأي لا يسلم من المنازعة؛ لأن الآية وإن بدأت بالحديث عن بنى إسرائيل من خلال الأمر بسؤالهم فإنها انتهت بأصل عام يدخل فيه كل من يفعل فعلهم فيبدل نعم الله، وما بدأت الآية بذكرهم . والله أعلم . إلا لأنهم كانوا أوضح النماذج في تبديل نعم الله سبحانه وتعالى.

---

(١) معالم التنزيل ٢٤١/١

(٢) تفسير البيضاوي ٤٩٤/١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولذلك وجدنا من المفسرين من حاول أن يقف موقفا وسطا في تفسيره للآية كالقرطبي الذي قال: (والمراد بالآية كم جاءهم في أمر محمد عليه السلام من آية معرفة به دالة عليه، قال مجاهد والحسن وغيرهما: يعني الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام من فلق البحر والظلل من الغمام والعصا واليد وغير ذلك، وأمر الله تعالى نبيه بسؤالهم على جهة التقريع لهم والتوبيخ.)(١)

فالقرطبي هنا يتكلم عن النصف الأول من الآية فقط، وهو إلى هذا الحد يتفق مع من جعل الآية كلها في بنى إسرائيل، وأما النصف الثاني منها فإنه يفسره على العموم ويرى فيها أنها نموذج لكل من يبدل نعمة الله فيقول: ("ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته" لفظ عام لجميع العامة، وإن كان المشار إليه بني إسرائيل، لكونهم بدلوا ما في كتبهم وجحدوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم، فاللفظ منسحب على كل مبدل نعمة الله تعالى)(٢).

ومن المفسرين من حمل الآية على العموم من أولها إلى آخرها كالشوكاني الذي قال في تفسيرها: (المأمور بالسؤال لبني إسرائيل هو النبي ‘، ويجوز أن يكون هو كل فرد من السائلين، وهو سؤال تقريع وتوبيخ. و"الآية البينة" وهي البراهين التي جاء بها أنبياؤهم في أمر محمد ‘، والمراد بالنعمة هنا ما جاءهم من الآيات، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على عبد من عباده كائنًا من كان، فوقع منه التبديل لها، وعدم القيام بشكرها- ولا ينافي ذلك كون السياق في بني إسرائيل، أو كونهم السبب في النزول لما تقرر من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.)(٣) وأحسب أن هذا الرأي هو الأنسب في تأويل الآية فيما يناسب موضوعنا هذا، وبخاصة وقد أكده صاحب تفسير المنار أيضا فقال: (ولم يقل فإن الله يعاقبهم) وإنما قال: (فإن الله شديد العقاب؛ ليشعرنا بأن هذا من سنته العامة التي تجرى على كل المبدلين لنعم الله)(٤).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٩.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٩.

(٣) فتح القدير ١/ ٢٨١ طبعة دار الوفاء . الأولى ١٤١٥ هـ.

(٤) تفسير المنار ٢/ ٢٦٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كما أن تفسير لفظ (النعمة) الوارد في الآية في قوله: {وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ} لا يقتصر على الإسلام دون سواه من النعم، كما قال الطبري.(١)

فالإسلام وإن كان أجل النعم وأجمعها إلا أن ما قاله الشوكاني من أن (الظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على عبد من عباده كائنًا من كان، فوقع منه التبديل لها، وعدم القيام بشكرها فإنه مبدل لنعم الله.)(٢) أولى في بيان الآية لأنه يجعل النعمة كلمة عامة شاملة، تشمل النعم الظاهرة والباطنة، والمادية والمعنوية، بل إن كلمة (آية) يمكن حملها على معنيين: علامة وبرهان ودلالة، أو نعمة، والآية التي بين أيدينا دليل على ذلك، والقرآن نفسه آية على صدق محمد ﷺ، وهو نعمة لما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين.

ولذلك فتبديل النعمة في القرآن قد يقصد به تبديل نعمة الإيمان بضدها كما ذكرنا، وقد يقصد به جحود النعم التي أنعم الله بها على الجاحدين، مثال ذلك في قوله تعالى في سورة النحل: {وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ} {وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} [سورة النحل:٧١، ٧٢].

◊ السمة الخامسة:

وهذه السمة يمكننا أن نسميها سمة التحول المشروط، أو التغير المشروط، فقد سبق أن ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على الإنسان دون سبب منه أصلا، وأنه سبحانه ينعم على المسلم وعلى الكافر، وأنه يحرم على الإنسان أن يبدل إنعام الله عليه بما هو ضده، فإذا استبدل الإنسان الإيمان بالكفر، والشكر بالجحود، والطاعة بالمعصية، فإن هذا التغيير في سلوك الإنسان يستوجب به تغيير نعم الله عليه بضدها، وذلك تنفيذا لسنة التغيير الإلهية التي نفهمها من قوله تعالى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة الأنفال:٥٣].

---

(١) جامع البيان ٢/ ١٩٣.

(٢) فتح القدير ١/ ٢٨١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذه الآية مع وضوحها في بيان سنة الله في تغيير النعم إلا أن بعض المفسرين قد ربط بينها وبين كفار قريش، حتى أبعد السد النجعة في ذلك فقال: (نعمة الله هي محمد صلى الله عليه وسلم أنعم الله به على قريش وأهل مكة، فكذبوه وكفروا به فنقله الله إلى الأنصار.)(١)

وهذا القول نرى فيه تخصيص للآية دون دليل، فلا شك أن محمد صلى الله عليه وسلم نعمة من الله، لكنه ليس نعمة لقريش أو لأهل مكة دون سواهم، وهجرته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة لا يفهم منها تحول النعم من أهل مكة إلى أهل المدينة، وإلا فقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم فاتحا مكة فهل يعنى ذلك أن النعمة تحولت من المدينة إلى مكة مرة أخرى؟

فهذا لا يقبله عقل ولا شرع، ولذلك فرأى السدى هنا قد جانبه الصواب، ودليل ذلك ما يلي:

١. إن هذه الآية أتت بين آيتين تتحدثان عن قوم فرعون فسياق الآيات كما يلي: {كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ} {ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ}

[سورة الأنفال:٥٣: ٥٤].

فالآية ـ كما هو واضح من السياق ـ تقع بين آيتين لا علاقة لهما لا بأهل مكة ولا بقريش ولا بأحداث السيرة النبوية مطلقا، ومن هنا فالربط بينها وبين انتقال النبي من مكة إلى المدينة بعيد جدا.

٢. إن كثيرا من المفسرين رأى أن الآية عامة لا ترتبط بهذه الأحداث التي قال بها السدي، فالفخر الرازي يقول في تفسيرها: (إنه تعالى أنعم على بنى آدم بالعقل، والقدرة، وإزالة الموانع، وتسهيل السبل، ليشتغلوا بالعبادة والشكر، ويعدلوا عن الكفر، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر وغيروا نعمة الله على أنفسهم؛ فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم، والمنح

(١) تفسير السدي الكبير جمع وتوثيق ودراسة ـ محمد عطا ـ صـ ٦٦. مصر ـ دار الوفاء ـ ١٤١٢ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بالمحن. فالله سبحانه لا يبتدئ أحدا بالعذاب والمضرة، والذي يفعله لا يكون إلا جزاء على معاص سلفت.)(١)

فكلام الرازي لا يشير من قريب أو بعيد إلى أهل مكة أو أنصار المدينة، ويكشف عن أن الإنعام الإلهي لا يتحول عمن يستحقه إلا إذا صرف هذا المنعم عليه أحواله إلى الفسق والكفر.

ويقول ابن كثير في تفسيرها أيضا: (يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كقوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ} [سورة الرعد:١١]. وقوله: (كدأب آل فرعون) أي كصنعة آل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.)(٢)

٣. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغرس هذه السمة في أهل بيته، وهي الحرص على نعم الله واجتناب الأسباب الداعية إلى تحولها عنهم، فكثيرا ما كان يوصى عائشة رضى الله عنها بقوله: (يا عائشة أحسني جوار نعم الله، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم.)(٣) ورسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله هذا يخشى على أمته بصفة عامة وعلى أهل بيته بصفة خاصة أن يقعوا فيما وقع فيه الهالكون من الأمم الغابرة التي كفرت بنعم الله، فأصابها بذلك الانتقام الإلهي، كما حكى سبحانه وتعالى عن قوم فرعون فقال: {كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ} ثم قال: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ} [سورة الأنفال:٥٣-٥٤]. ثم قال الله سبحانه وتعالى بعد هذه الآية: {كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ} [سورة الأنفال:٥٤].

---

(١) التفسير الكبير ١٨٠/١٥ . للفخر الرازي . دار الكتب العلمية . طهران . د.ت.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٢٢/٢.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب الشكر صـ٣ وكتاب فضيلة الشكر لله على نعمته لأبى بكر الخرائطي صـ ٥٧ . تحقيق محمد مطيع الحافظ . دار الفكر . دمشق . سوريا . الطبعة الأولى . ١٤٠٢ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

◊ السمة السادسة:

والشكر بصفة خاصة من وسائل بقاء النعم وزيادتها، هكذا قال الله سبحانه وتعالى في كتابه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾} [سورة إبراهيم:٧].

قال القرطبي: (الآية نص في أن الشكر سبب المزيد، وحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للمنعم، وألا يصرفها في غير طاعته.)(١) (٥٧) وقد أفاض العلماء في الحديث عن الشكر، وإنما يعنينا من كلامهم ههنا أن نعلم أن الشكر هو الثناء على النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدى ولساني والضمير المحجبا(٢)

يقول الدكتور عبد الكريم اليافي: (جعل الشكر بإزاء النعمة جزاء لها متفرعا عليها، وكل ما هو جزاء النعمة عرفا يطلق عليه الشكر لغة.)(٣)

ولا وجه لتخصيص معنى الزيادة المذكورة في الآية بأنها الزيادة في الطاعة فقط كما قال قتادة، فقد رد الشوكاني هذا الرأي بقوله: (ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة، بل الظاهر من الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء للشكر، فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه في رزقه، ومن شكر الله على ما أقدره عليه من طاعته زاده من طاعته، ومن شكره على ما أنعم عليه به من الصحة زاده الله صحة ونحو ذلك.)(٤)

كما أننا لابد أن نشير إلى أن سياق هذه الآية وإن كان في الحديث عن بنى إسرائيل إلا أنها عامة.(٥)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٢٩٢.

(٢) البيت ذكره الزمخشري في تفسير الكشاف ولم ينسبه، راجع الكشاف ٨/١.

(٣) مقدمة كتاب الشكر لله على نعمته . للخرائطي صـ٣ . تحقيق محمد الحافظ . سوريا . دمشق . دار الفكر . الطبعة الأولى . ١٤٠٢ هـ.

(٤) فتح القدير ١٠٠/٣.

(٥) هكذا قال الطبري في جامع البيان ١٣/ ١٢٥، القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٩٢/٩، والشوكاني في فتح القدير ١٠٠/٣، طبعة دار الوفاء . مصر الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، وغيرهم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي الحديث النبوي الشريف يظهر لنا بجلاء بيان هذه السمة من سمات الإنعام، فقد روي عن أنس قال: قال رسول الله ‘: ((مَن أُلْهِمَ خمسة لم يُحْرَمْ خمسة، وفيها: ومن أُلْهِمَ الشكر لم يحرم الزيادة)).(١)، وعنه أيضا قال: ((أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم سائلٌ فأمر له بتمرة فلم يأخذها، وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها وقال: تمرة من رسول الله، فقال للجارية: اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التي عندها.))(٢)

وفي هذا الهدى النبوي بيان عملي لهذه السمة، ودليل على أن الإنسان مسؤول كذلك عن زيادة البركة في النعم أو محقها، ويشير ابن القيم إلى هذا المعنى بقوله: (فالبركة في الرزق تمحق وتذهب بالمعاصي، فالمعاصي تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العمل، وبركة الطاعة.)(٣)

◊ السمة السابعة:

في القرآن الكريم أتى الإنعام وسيلة وسببًا لأمرين اثنين: فإما أن يكون ابتلاء و فتنة، وإما أن يكون استدراجا، فأما الابتلاء ففي حق المؤمنين، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ} [سورة الإنعام:١٦٥]. وقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا} [سورة الكهف:٧]. وقوله تعالى: {وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ} [سورة الأنبياء:٣٥].

---

(١) المسند ٤/ ٢٥١،٢٥٥

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٢٦٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٣٤) طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . د٠ت، و قال ابن كثير في تفسيره عن هذا الحديث (وفي إسناده أحمد عمارة بن زاذان، وثقه أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان، وقال ابن معين: صالح، وقال أبو زرعة: لا بأس به، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين، وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه، وقال أحمد: روي عنه أحاديث منكرة، وقال أبو داود: ليس بذاك، وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: لا بأس به.) راجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٥٠٥ طبعة دار الحديث . القاهرة الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ و نقل الشوكاني في تفسيره كلام ابن كثير أيضا ٣/١٤٠.

(٣) الكافي لمن سئل عن الدواء الشافي لابن القيم صـ ١٠٧ . المكتبة العصرية . بيروت . لبنان . ١٤٢٢ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهذه الآيات وغيرها أوضح دليل على أن ما يناله الإنسان المؤمن من الإنعام الدنيوي ما هو إلا ابتلاء وفتنة من الله له ليتبين منه أيشكر أم يكفر؟ وهكذا لما أنعم الله على نبيه سليمان عليه السلام بالنعم الجزيلة قال عليه السلام: {قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ} [سورة النمل:٤٠].

وللمفسرين في بيان هذه الآيات كلام طويل جمع أطرافه الراغب الأصفهاني في مفرداته لما أراد أن يعرف الابتلاء، فقال: (فاختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا ابتلاء، فالمنحة والمحنة جميعا بلاء، والمنحة أعظم البلاءين. وبهذا النظر قال عمر بن الخطاب: بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر، وقال علي: من وسع عليه في دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله.)(١)

ولعل هذه النظرة العمرية للإنعام في أنه أشد البلاءين، وما أكدها به أمير المؤمنين علي رضى الله عنهما تؤيد ما ذهبنا إليه من إن الإنعام في حق المؤمنين ابتلاء وفتنة، وإن كان للفتنة مجالات أخرى أرحب وأوسع من الابتلاء إلا أنها كما يقول الراغب: (جعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا... وقد سمى الله الأموال والأولاد فتنة في قوله: {وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ} [سورة الأنفال:٢٨] اعتبارا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم. وسماهم عدوا في قوله: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ} [سورة التغابن:١٤]. اعتبارا بما يتولد منهم. وجعلهم زينة في قوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ} [سورة آل عمران:١٤]. الآية. اعتبارا بأحوال الناس في تزينهم بهم.)(٢)

وإنما كان الإنعام وسيلة من وسائل الفتنة على نحو ما حدث مع قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم بسبب فتنة المال، وفي بيان ذلك يقول تعالى على لسان قارون الذي فتن بماله: {قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ} [سورة القصص:٧٨]. فرد الله سبحانه وتعالى عليه هذا الزعم في قوله تعالى: {فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ

(١) المفردات صـ٦١.

(٢) المصدر السابق صـ ٣٧٢ (بتصرف).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة الزمر:٤٩]. فالإنعام ههنا كان وسيلة من وسائل الوسائل لامتحانه: أيطيع أم يعصى، أيشكر أم يكفر؟

يقول ابن كثير في بيان هذا المعنى: (يخبر تعالى عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عزَّ وجلَّ وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله نعمة منه طغى وبغى وقال: "إنما أوتيته على علم " أي لما يعلم استحقاقي له؛ ولولا أنى عند الله خصيص لما خولني هذا، وليس الأمر كما زعم إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى مع علمنا المتقدم بذلك فهي فتنة أي اختبار.)(١)

فهذا الإنعام في حق المؤمنين، وأما في حق الكافرين المكذبين فإنه وسيلة لاستدراجهم للانتقام الإلهي منهم، قال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ} {نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [سورة المؤمنون:٥٥، ٥٦].

ويقول: {وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف:١٨٢]. وقال تعالى: {فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة القلم:٤٤].

وهذه الآيات وأشباهها مما في معناها، يبين الله من خلالها سنة الاستدراج للكافرين بالإنعام عليهم، وإمدادهم بما لا يحصى من النعم، والاستدراج هو:

(الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة، أو أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، والمعنى في هذه الآية: سنستدرجهم قليلًا قليلًا إلى ما يهلكهم، وذلك بإدرار النعم عليهم وإنسائهم شكرها، فينهمكون في الغواية ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك، وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفي.)(٢)

والاستدراج بهذا المعنى لون من ألوان الانتقام سوف نزيده تفصيلا في حديثنا عن الانتقام إن شاء الله، وإنما يعنينا هنا أن نبين أن الإنعام وسيلة من وسائل الاستدراج بالنسبة للكافرين والمكذبين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٩، وقريب من هذا المعنى في فتح القدير ٤/ ٤٥.

(٢) فتح القدير ٢/ ٣٩٥

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولعل الآيات السابقة كانت موضحة لهذا المعنى، ولم نجد خلافا يذكر بين المفسرين في بيانه من خلالها، يقول الضحاك بن مزاحم في بيان قوله تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ} {نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [سورة المؤمنون:٥٥، ٥٦]: (كلما جددوا معصيةً جددنا لهم نعمة، ويقول سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعمة وننسيهم الشكر.)(١)

بل إن الزيادة في الإنعام وسيلة من وسائل الاستدراج أيضا، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: قوله تعالى: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [سورة الإنعام:٤٤].

ويعقب الدكتور عبد الكريم زيدان على هذه الآية بقوله: (إن سنة الله تعالى في هؤلاء مدة إمهالهم أن يوسع عليهم الرزق والخيرات، ويزيد عليهم الرخاء الذي هم فيه ويعطيهم ما يتمنون من النعم على وجه الاستدراج لهم وزيادة إثمهم لما يقابلون هذه النعم بالمعاصي.)(٢)

◊ السمة الثامنة:

إن المستقرئ لآيات الإنعام الدنيوي في القرآن يجد أن الله سبحانه وتعالى قد تحدث عن إنعام دنيوي موعود، أي لم يتحقق لعدم تحقق أسبابه، وإنعام تحقق لتحقق أسبابه.

* فقد وعد الله المؤمنين بنعمة النصر على أعدائهم إذا حققوا أسباب النصر وتوكلوا على ربهم قال تعالى: {وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحج:٤٠]. فالنصر الإلهي مشروط بطاعة المؤمنين لربهم ونصرهم لدينه ولأوليائه. وقال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ} {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ} [سورة الصافات:١٧٣، ١٧٤].

والنصر في هذه الآية مشروط أيضا فإنه لا يتنزل من عند الله إلا على من كانوا عبادا له وجندا نصروا دينه.

---

(١) معالم التنزيل ٣٨٠/١، الجامع لأحكام القرآن ٢٩٨/٧.

(٢) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد د/ عبد الكريم زيدان صـ ٢٣٥. مؤسسة الرسالة . بيروت . لبنان . الطبعة الثالثة . ١٤١٩ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

*ووعد أهل الكتاب بالرزق الوفير الميسر لو أقاموا التوراة والإنجيل فأتمروا بأمرهما وانتهوا بنهيهما، فقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم} [سورة المائدة:٦٦].

وذلك قبل نزول القرآن الكريم وبعثة النبي الأمين، وأما بعد البعثة المحمدية فلا إيمان لهم إلا بتصديقه واتباع شرعه.

* ووعد الله سبحانه أهل القرى لو آمنوا واتقوا الإنعام ببركات من السماء والأرض فقال: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [سورة الأعراف:٩٦].

*ووعد المؤمنين لو أنهم اتقوا الله وآمنوا برسوله أن يؤتيهم من رحماته الواسعة فقال: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الحديد:٢٨].

وهذا وعد بالإنعام الدنيوي والأخروي.

* وجعل نعمة التمكين للمسلمين مشروطة بشروطها فقال تعالى: {ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ} [سورة الحج:٤١].

فإذا تركوا الصلاة، ولم يؤدوا الزكاة، ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فلا تمكين ولا عزة، بل تشرذم ومذلة.

والآيات في ذلك كثيرة ويكفي أن نراجع ما وعد به أنبياء الله . مثل نوح، وهود عليهما السلام . أقوامهم من النعيم الدنيوي إذا هم آمنوا.(١)

ومن الإنعام الإلهي الدنيوي الذي تحقق على سبيل المثال لا الحصر:

* ما أنعم الله به على فرعون وقومه من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم فقال: {كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ} {وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} {وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ} [سورة الدخان:٢٥، ٢٦، ٢٧].

---

(١) راجع سورة هود ٤٨، ٥٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

*وفي سورة الشعراء بيان واضح لبعض ما أنعم الله به على كثير من الأمم التي كفرت بأنعم الله فأصابها ما أصابها من أنواع الانتقام الإلهي.(١)

* وأنعم الله على بنى إسرائيل بنعم شتى، منها: الكتاب والحكم والنبوة والطيبات التي لا تحصى، والتفضيل على عالم زمانهم، قال تعالى: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾} [سورة الجاثية:١٦].

وعن إتيانهم نعمة العلم يقول تعالى: {وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾} [سورة الدخان:٣٢].

وفي الآية بيان لنعمة الاختيار والاجتباء والعلم في زمانهم فقط. ويقول عما أعطاهم من نعمة الهدى: {وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾} [سورة الأعراف:١٥٩].

ويقول أيضا: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ} [سورة غافر:٥٣].

ويقول عن نعمة العهد والميثاق: {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا} [سورة المائدة:٧٠].

ويقول عن نعمة الملك: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ} [سورة المائدة:٢٠].

*وأنعم على المسلمين بالنصر في غزوة بدر رغم قلة عددهم وعتادهم، فقال: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة آل عمران:١٢٣].

وفي غزوة الأحزاب، وكذلك في غزوة بنى النضير.(٢)

*ومكن الله للمسلمين في البلاد التي فتحوها وامتن عليهم بذلك فقال للمسلمين بعد غزوة خيبر: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا} [سورة الأحزاب:٢٧].

◊ **السمة التاسعة:**

---

(١) راجع سورة الشعراء ١٢٩،١٢٨،٥٧،٥٨، ١٤٦.١٤٩.

(٢) (سورة الأحزاب٢٦، والحشر ٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي القرآن الكريم عمَّ الله سبحانه الأنبياء ﭽ بإنعامه فقال: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا} [سورة مريم:٥٨]. وقال سبحانه: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ} [سورة الإنعام:٨٩].

وخص الله بعضهم بنعم لا يشاركهم فيها أحد من البشر، فإبراهيم عليه السلام أنعم الله عليه بالخلة فقال تعالى: {وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا} [سورة النساء:١٢٥].

ومن أنبياء بنى إسرائيل أتم نعمته على يوسف عليه السلام قائلا: {وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ} [سورة يوسف:٦].

وأنعم الله على موسى عليه السلام بالكلام دون واسطة فقال تعالى: {قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ} [سورة الأعراف:١٤٤].

وقال: {وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا} [سورة النساء:١٦٤].

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: {رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾} [سورة القصص:١٧].

وآتى داود وسليمان عليهما السلام من فضله فقال تعالى: {وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} {وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ} {وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ} {حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ} {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ} [سورة النمل:١٥: ١٩].

وامتن الله سبحانه وتعالى على عيسى بالإنعام فقال تعالى: قوله تعالى: {إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ} [سورة الزخرف:٥٩]. فكل هؤلاء من أنبياء بنى إسرائيل.

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد عدد الله النعم التي اختصه بها فقال: {أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ} {وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ} قوله تعالى: {ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ} {وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ} [سورة الشرح:١: ٤].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال في موضع آخر: {وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [سورة النساء:١١٣]. وقال: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ} [سورة الحجر:٨٧].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبحث الثاني

سمات الانتقام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم

◊ الانتقام لغة واصطلاحا:

الانتقام لغة مأخوذ من النقمة بالكسر أو الفتح في النون، وهو المكافأة بالعقوبة، والجمع: نقم نقمة، و نِقمِ نقمةٍ. يقال: لم أرض منه حتى نقمت وانتقمت إذا كافأته عقوبة بما صنع وأنكرت عليه، وفي الحديث: ((وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تُنتهك محارم الله عزَّ وجلَّ فينتقم لله بها)). وانتقم الله منه أي: عاقبه، وانتقم ونقم الشيء يعني أنكره(١).

و"المنتقم" من أسماء الله الحسنى، ومعناه كما يقول الزجاج: (كراهة يضامها سخط، فمن كره أمرا من الأمور مع سخط منه له فهو منتقم، وقد كره الله تعالى أمورا وسخط أمورا فهو منتقم.)(٢) وهكذا فسره ابن منظور أيضا(٣).

ومن اللافت للنظر أن نجد من بين أسمائه سبحانه وتعالى اسم "المنتقم "ولا نجد اسم "المنعم"، وأحسب أن السبب في ذلك أن نعم الله سبحانه وتعالى ظاهرة واضحة لا تخفى على كل ذي لب، فهي ظاهرة وباطنة كما سبق أن أشرنا، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن هناك عشرين اسما من أسمائه سبحانه وتعالى تدل كلها على إنعامه كـ(الرحمن، والرحيم،

---

(١) لسان العرب ٥٩٠/١٢، والحديث في صحيح البخاري (١٨٩/٤) برقم (٣٥٦٠)، كتاب المناقب، باب صفة النبي ‘.

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى . أبو إسحاق الزجاج ١/ ٦٢ . تحقيق أحمد يوسف الدقاق . دار الثقافة العربية . دمشق . الطبعة الأولى . ١٩٧٤م وتحفة الذاكرين للشوكاني صـ٧٣، ٧٤. المكتبة العصرية . بيروت . لبنان . ١٤٢٢ هـ.

(٣) لسان العرب ١٢/ ٥٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والوهاب، والرزاق، والفتاح، والباسط، والرافع، والمعز، الحليم، والغفور، والكريم، والمجيب، والواسع، والمجيد، والبر، وذي الجلال والإكرام، والمغنى، والنافع، والصبور)(١).

ومن ناحية ثالثة فإن كثيرا من الناس إذا عاش في كنف النعمة ألفها، ونسي ما كان من شأنه قبل حلولها، ثم نسي المنعم عليه رويدا رويدا، وبعد حين ينسب النعمة لنفسه قائلا: {إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ} [سورة القصص:٧٨] وعندئذ يبارز ربه المنعم عليه بالمعاصي، ثم بالتكذيب، ثم يستخدم النعمة في الظلم والطغيان والإفساد في الأرض، ووقتئذ يستحق الانتقام من الله المنتقم الجبار.

◈ أسباب الانتقام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم.

توطئة:

وردت كلمة "نقم" ومشتقاتها في القرآن الكريم سبع عشرة مرة(٢). منها ثلاث عشرة مرة مضافة إلى الله سبحانه وتعالى لتبين انتقامه من الظالمين والكافرين، وأربع منها تكشف عن جانب نفسي للكافرين والمنافقين كقوله تعالى عن الكافرين: {وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ} [سورة البروج:٨].

وقوله عن المنافقين: {وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ} [سورة التوبة:٧٤].

وهي في المواضع الأربعة بمعنى الكُره فقط دون العقوبة(٣).

كما ورد في القرآن الكريم كلمات أخرى قريبة في معناها من معنى الانتقام نحو: (الفتنة، والخزي، والبأساء والضراء، والعقاب، والردى، والأخذ)(٤).

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٢٣. ٣٣. مكتبة جدة . المملكة العربية السعودية . ١٤١٣هـ، وتفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ٦٢/١.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي . صـ ٧١٧، ٧١٨. دار الفكر . بيروت . لبنان . د٠ت.

(٣) راجع المفردات للأصفهاني ص: ٨٢٢ مادة "نقم".

(٤) تحصيل نظائر القرآن صـ ٤٣،٩١،١٣٢،١٤٧. للحكيم الترمذي . تحقيق حسنى زيدان . مطبعة السعادة. مصر . الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى لم يبادر الإنسان بالانتقام، وإنما كرمه بالإنعام فقال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [سورة الإسراء:٧٠].

وقال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ} {ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ} {فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ} [سورة الانفطار:٦: ٨].

ومع ذلك فقد انحرف الإنسان عن المنهج الإلهي فقتل قابيل هابيل ظلما، وارتكب الإنسان الفواحش ما ظهر منها وما بطن فكان لابد من العقاب الإلهي ليرتدع عن ظلمه ويستقيم على أمر ربه. فتاريخ المجتمع الإنساني مع ربه سيء لا تَبْيَضُّ صفحةٌ منه بعمل صالح إلا سودت صفحات بأعمال رديئة...وبدا أبناء آدم في صور دميمة، يسارعون إلى الشر أكثر مما يسارعون إلى الخير، ويغلب نداء الشهوة نداء العقل، وحب العاجلة حب الآجلة. ولم يسكت القدر الساهر عنهم فقد بين سبحانه أنه أوقع بالمجرمين ما يستحقونه: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ} [سورة العنكبوت:٤٠].

وسنعرض هنا لأسباب الانتقام، وأنواعه، وسماته في القرآن الكريم:

◊ أول هذه الأسباب هي:

الكفر بالله وآياته، وإنكار وجوده أو ادعاء الألوهية، أو طاعة من يدعى الألوهية سواه، أو كفر النعمة، والكفر بنوعيه: كفر الملة، وكفر النعمة هو أول أسباب الانتقام الإلهي الدنيوي، وما أكثر الأمثلة القرآنية التي تبين أن الكفر بنوعيه كان سببا مباشرا في الانتقام الإلهي الدنيوي، وتفصيل ذلك يحتاج إلى صفحات مطولة، وإنما سنعرض هنا آيات قرآنية تبين أن الكفر بنوعيه كانا سببا مباشرا في وقوع الانتقام الإلهي الدنيوي من أصحابه، ففي سورة النحل ضرب الله مثلا بقرية كان آمنة مطمئنة يأتيها رزقها من كل مكان فكفرت بأنعم الله؛ فحَلَّ بها الانتقام الإلهي الدنيوي، وهو الجوع والخوف بدلا من الأمن والرزق الوفير، قال تعالى: {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ} [سورة النحل:١١٢].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإذا كان المفسرون قد ذهبوا مذاهب شتى في بيان اسم هذه القرية المذكورة في الآية، وبيان الأسباب التي جعلتها مثلا لانتقام الله منها.(١)، فإن تنكير لفظ القرية ههنا يفيد العموم ويجعل من صنيعها وصنيع الله بها عبرة وعظة لسواها من القرى؛ ولذلك فمجمل ما قاله المفسرون بعد حديثهم عن اسم القرية: (جعل الله هذه القرية مثلا لأهل مكة ولكل قوم أنعم الله تعالى عليهم بنعمة الأمن والرزق الوفير الواسع، فأبطرتهم هذه النعمة فلم يقدروها حق قدرها، ولم يشكروا الله عليها ولم يقوموا بحقها، فأنزل الله فيهم نقمته فليحذر غيرهم أن يفعلوا فعل أهل هذه القرية)(٢).

فما من قرية تنكرت لنعم الله فاستعملتها فيما يغضبه، وصرفتها إلى معصيته إلا أذاقها الله لباس الجوع والخوف، وما نراه الآن في كثير من بقاع العالم من جوع وخوف بعد غنى وأمن إن هو إلا تنفيذ لهذه السنة الإلهية لصورة من صور الانتقام الإلهي الدنيوي.

وفي سورة سبأ مثال آخر لقوم كفروا بنعم الله، فأنزل الله بهم انتقامه، فأرسل عليهم سيلا كاسحا، وأبدلهم بجناتهم أشجارا عجافا لاتسمن ولا تغني من جوع، يقول تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} {فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ} {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} [سورة سبأ:١٥: ١٧].

وفي سورة الكهف نرى صاحب الجنتين الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه، معتقدا أن جنته لن يكتب لها الفناء أبدا فنصحه صاحبه قائلا له: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} {لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} [سورة الكهف:٣٧، ٣٨].

فلما أصر على كفره كان الانتقام الإلهي فقال سبحانه: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} [سورة الكهف:٤٢].

---

(١) راجع تفسير البيضاوي ٤٢٣/١، والجامع لأحكام القرآن ١٧٢/١٠، وفتح القدير ٣/ ٢٨٥ (بتصرف).

(٢) راجع تفسير البيضاوي ٤٢٣/١، والجامع لأحكام القرآن ١٧٢/١٠، وفتح القدير ٣/ ٢٨٥ (بتصرف).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبالجملة فقد توعد الله سبحانه وتعالى الكافرين بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة فقال: {فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ} [سورة آل عمران:٥٦].

وبالقوارع المزلزلة لهم في الدنيا، فقال تعالى: {وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ} [سورة الرعد:٣١].

ففي هذه الآيات وفي غيرها نص صريح على أن الكفر كان سببا مباشرا في وقوع الانتقام الإلهي، وفي آيات أخرى قد يجمع الله مع الكفر سببا آخر وهو التكذيب.

*والتكذيب هو السبب الثاني من أسباب الانتقام الإلهي، وربما ورد منفردا في بعض الآيات، وربما جاء مقترنا بأسباب أخرى كالكفر، والظلم، والفسق، غير أننا سنعرض ههنا مشهدا من المشاهد القرآنية نرى تكذيب الكافرين فيه سببا واضحا من أسباب الانتقام الإلهي الدنيوي، ففي سورة القمر نقرأ هذه الآيات: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ} {فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ} {فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ} {وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} {وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ} {وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ} {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ} {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} {إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} {تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ} {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ} {فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ} {أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ} {سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ}.(١)

فالتكذيب الذي ارتكبه قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون كما ذكر في الآيات كان سببا في الانتقام الإلهي الدنيوي منهم جزاء وفاقا على تكذيبهم وكفرهم، وسار على نهجهم في التكذيب كفار مكة فكذبوا محمدا ‘، فتوعدهم الله سبحانه وتعالى بالهزيمة النكراء، فوقع ما توعدهم به يوم بدر كما روى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس f.(٢)

* الظلم: وهو في القرآن على ثلاثة أوجه: (ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ومنه قوله تعالى: {إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان:١٣].

---

(١) انظر: سورة القمر ٩: ٤٥.

(٢) صحيح البخاري، وجامع البيان، وتفسير البيضاوي ١/ ٢٧٠

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: {إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ} [سورة الشورى:٤٢].

وظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله: {فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ} [سورة فاطر:٣٢].)(١)

والظلم بأنواعه هو السبب الثالث من أسباب الانتقام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم، ولما فكر نوح عليه السلام أن يطلب من ربه الإمهال للظالمين من قومه علهم يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن ظلمهم نهاه الله عن ذلك وأوقع بهم انتقامه في الحال، يقول سبحانه وتعالى مخاطبا نوح: {وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ} [سورة هود:٣٧]. وقال: {فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ} [سورة العنكبوت:١٤]. وقال تعالى مبينا الانتقام الإلهي من القرى الظالمة من بعد نوح عليه السلام: {وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩} [سورة الكهف:٥٩].

يقول الشوكاني: ("وتلك القرى" أي قرى عاد وثمود وأمثالها "أهلكناهم لما ظلموا" أي وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي "وجعلنا لمهلكهم موعدًا" أي وقتًا معينًا.)(٢)

بل وبين سبحانه وتعالى أن انتقامه من الظالمين أليم شديد، يقول سبحانه وتعالى: {وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ} [سورة هود:١٠٢].

وفي بيان معنى الآية يقول البيضاوي: (ومثل ذلك الأخذ "أخذ ربك إذا أخذ القرى" أي أهلها." وهي ظالمة" حال لأهلها، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا بظلمهم وإنذار كل ظالم ظلم نفسه، أو غيره من وخامة العاقبة. "إن أخذه أليم شديد" وجيع غير مرجو الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.)(٣)

وكم كان ظلم أصحاب الحضارات البائدة سببا في الانتقام الإلهي الدنيوي منهم، وتدمير ما شيدوه من حصون وقلاع، يقول سبحانه وتعالى: {فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ} [سورة الحج:٤٥].

---

(١) المفردات صـ ٣١٦(بتصرف).

(٢) فتح القدير ٣/٤٢٣ (بتصرف).

(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٢٦٠ (بتصرف).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقول البغوي: (فكم من قرية أهلكناها وأهلها ظالمون، فهي ساقطة على سقوفها، وكم من بئر معطلة أي متروكة مخلاة عن أهلها وقصر رفيع طويل. قيل: إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن، أما القصر فعلى قلة جبل، والبئر في سفحه، ولكل واحد منهما قوم كانوا في نعمة فكفروا فأهلكهم الله، وبقي البئر والقصر خاليين)(١).

وفيهم أنزل الله سبحانه قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} [سورة الأنبياء:١١].

يريد مدائن كانت باليمن. وقال أهل التفسير والأخبار: إنه أراد أهل حضور باليمن.(٢)

وكثيرا ما حذر الله سبحانه وتعالى أهل مكة في القرآن الكريم من مغبة الانتقام منهم لتعاطيهم الظلم كالقرون السالفة من قبلهم، فقال لهم: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [سورة يونس:١٣].

ففي قوله: (من قبلكم) يقصد به أهل مكة كما قال بذلك غير واحد من المفسرين. وتكرر هذا التحذير للظالمين من أهل مكة وأمثالهم في القرآن، فخاطبهم سبحانه وتعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم قائلا: {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ} [سورة الإنعام:٤٧].

وفي سياق التحذير من عاقبة الظلم يقول سبحانه وتعالى لأهل مكة وأمثالهم من الظالمين أيضا: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [سورة القصص:٥٩].

فأم القرى هي مكة والتحذير في الآية موجها للظالمين من أهلها الذين كذبوا محمدا ‘، يقول القرطبي: (أي لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم وفي هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم. أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم، كما قال عز من قال: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [سورة هود:١١٧]. فنص في قوله (بظلم) على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ١/ ٣٩٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/٢٤٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ظلمًا لهم منه، وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم، دل على ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ} [سورة البقرة:١٤٣].(١)

بل إن التحذير من الانتقام الإلهي الدنيوي بسبب الظلم في القرآن الكريم لا يقتصر على الكافرين الهالكين، وإنما يشمل المسلمين أيضا، وفي ذلك يقول تعالى: {وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ} [سورة الأنفال:٢٥].

وللمفسرين في تفسير هذه الآية وجهان: أولهما أن الفتن لا تصيب الظالمين فقط وإنما تصيب الظالمين والساكتين على الظلم، وهذا رأي ابن عباس وعدد من الصحابة.(٢)

والوجه الثاني: إن الفتنة تحل بالظالمين خاصة دون غيرهم، وقال بهذا الرأي عدد من التابعين.(٣)

والأرجح هو الرأي الأول، وذلك لأن الظلم يتعدى أثره إلى سائر المجتمع، إضافة إلى ترجيح الطبري، والبيضاوي، وابن كثير لهذا الرأي.

* **الترف والبطر**: أما الترف فهو التنعم، والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش.(٤) وبطر النعمة، هو الطغيان بسبب النعمة، والتوسع في ملاذ الدنيا).(٥)

وفي القرآن ذكرت كلمة الترف ومشتقاتها تسع مرات تدور كلها على ما يسببه الترف من تكذيب المترفين للرسل. وسوق المترفين للظلم، وهلاكهم وهلاك أممهم بسبب ذلك، يقول سبحانه وتعالى مبينا ذلك: {وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا} [سورة الإسراء:١٦]. فالمترفون . كما تبين هذه الآية . هم سبب الانتقام الإلهي الدنيوي بسبب فسقهم وإشاعتهم للظلم والفواحش في المجتمعات، وهي سنة الله تعالى في كونه، فإذا كَثُرَ المترفون وكثر فسادهم حَلَّ الهلاك والدمار، وهذه السنة الإلهية تكرر الإشارة إليها في غير موضع من القرآن الكريم ففي سورة الأنبياء يقول تعالى: {وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٨/١٣.

(٢) جامع البيان، وتفسير البيضاوي ١٠٠/١، وتفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٩٥.

(٣) راجع تفسير البغوي ١/ ٢٤٥ ونسبه للسدي، ومقاتل، والضحاك، وقتادة.

(٤) لسان العرب ٣٦٠/١.

(٥) السنن الإلهية صـ١٨٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ} {فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ} {لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ} {قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ} {فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ} [سورة الأنبياء:١١: ١٥].

فكثير من القرى أهلكها الله في الدنيا بسبب الترف الذي قاد أهلها إلى الظلم، وكم حاول هؤلاء المترفون المهلكون الفرار من الانتقام الإلهي، لكنه سبحانه سخر منهم قائلا: لا تفروا وعودوا إلى ترفكم الدنيوي (أي إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم وكفركم، وارجعوا إلى مساكنكم التي كنتم تسكنونها وتفتخرون بها) فهذا الذي قادكم إلى الظلم لأنفسكم ولغيركم، وأوردكم مورد الهلاك والانتقام الإلهي الذي حصدهم حصدا فلم يبق لهم أثرا بعد عين.(١)

ويقترن بالترف البطر أيضا، وهو سلوك إنساني، ومن الأسباب التي تؤدي إلى وقوع الانتقام الإلهي الدنيوي، .كما ذكرنا آنفا . فإن الأمة إذا ألفت النعمة فلم تقم بشكر المنعم عليها، ثم استعملتها في معصية الله بدلا من طاعته، جرَّها ذلك إلى الوقوع في البطر والأشر، وبيان ذلك في قوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ} [سورة القصص:٥٨]. وعقاب ذلك التخريب والتدمير.(٢)

* الاغترار بالقوة والتكبر والمكر والطغيان والعدوان، وإيثار العمى على الهدى فكل ذلك من أسباب الانتقام الإلهي الدنيوي؛ فالاغترار بالقوة والاستكبار من أسباب الانتقام الإلهي، قال تعالى عن قوم عاد لما اغتروا بقوتهم وتكبروا في الأرض بغير الحق: {فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ} {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ} [سورة فصلت:١٥، ١٦].

ومن أسباب الانتقام الإلهي مكر السيئات، قال تعالى: {أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} [سورة النحل:٤٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٣٥/٣، وفتح القدير ٣/ ٥٧٣.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤٢٣/٣، والجامع لأحكام القرآن ٣٠١/١٣، وتفسير القرآن العظيم ٣٩٥/٣، وروح المعاني ٩٨/٢٠ والسنن الإلهية صـ ١٨٦،٢٠١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال تعالى: {قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} [سورة النحل:٢٦].

وكذلك الطغيان فإنه من أسباب الانتقام الإلهي وقوم فرعون أوضح مثال على ذلك، قال تعالى في حقهم: {وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ} {ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَادِ} {فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ} {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} [سورة الفجر:١٣].

والاعتداء أيضا من أسباب الانتقام الإلهي، قال تعالى في حق بنى إسرائيل لما اعتدوا في السبت: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ} [سورة البقرة:٦٥].

وإيثار العمى على الهدى كما حدث من قوم ثمود قال تعالى عنهم: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ} [سورة فصلت:١٧].

*وأخيرا فإن الفساد والإفساد في الأرض والمعاصي بصفة عامة من الأسباب الجالبة لانتقام الله سبحانه وتعالى الدنيوي، يقول تعالى: {ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الروم:٤١].

فظهور الفساد في البر والبحر من جراء الفعل الإنساني الشائن يستوجب عقاب الله سبحانه وتعالى لهم؛ ولعل ذلك يكون رادعا لهم وسببا من أسباب أوبتهم إلى ربهم.

وفي نهاية الحديث عن أسباب الانتقام الإلهي قد يثار هذا السؤال: أيهما يكون أسرع سببا في الانتقام الإلهي الدنيوي الكفر أم الظلم؟

يرى بعض العلماء أن (سنة الله تعالى ألا يهلك الناس هلاك استئصال بكفرهم ما داموا صالحين للحياة المستقيمة، وجزاء الكفر يقبل التأجيل إلى الدار الآخرة، ولكن جزاء البغي والظلم والفجور والفساد في الأرض معجل في هذه الحياة، موفور في الآخرة.)(١)

ويؤكدون هذا الرأي بما قاله ابن تيمية: (وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن صـ٤٩ د/محمد صادق عرجون . منشورات العصر الحديث . جدة . ١٣٩١ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق . أي في الآخرة، وإن لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة.)[١]

وهذا القول لابد أن نفهمه في ضوء أن الكفر والظلم سببان لا ينفصمان في وقوع الانتقام الإلهي الدنيوي؛ وقد بينا آنفا كيف أن أقواما عدة انتقم الله منهم بسبب كفرهم بآيات الله، وأن الله أهلك القرى بسبب ظلمها، ثم إن الله سبحانه وتعالى قال في سورة البقرة: {وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} [سورة البقرة:٢٥٤].

قال ابن كثير في بيان هذه الآية: (مبتدأ محصور في خبره، أي ولا ظالم أظلم ممن وافي الله يومئذ كافرا.)[٢]

وفي تفسير الجلالين: ("والكافرون" بالله أو بما فرض عليهم "هم الظالمون" لوضعهم أمر الله في غير محله.)[٣]

وقال الشوكاني: (ما من كافر إلا وهو ظالم لنفسه.)[٤]، وقد ذكر عبد الحميد طهماز أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات فحددها بـ (الانحراف عن أصل العقيدة، والانحراف عن سنن الفطرة، والشذوذ في العلاقات الجنسية، والاغترار بالقوة، والطمع والجشع، والاستبداد، وتحكم الفئة الفاسدة في السلطة، وتحجر المشاعر وتبلد المدارك، والانسلاخ عن الشعور بالمسؤولية.)[٥]

---

(١) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية صـ٤٠ تحقيق صلاح الدين المنجد . دار الوطن . الرياض . ١٤١٧ هـ.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٨٨.

(٣) تفسير الجلالين ١/ ٥٣.

(٤) فتح القدير ١/ ٤٠٩.

(٥) أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف صـ ٨ . عبد الحميد محمود طهماز . دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى . ١٤١٢ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن هنا فلا يمكن أن توصف الحياة بأنها مستقيمة مع قيامها على الكفر بالله، لأنه سيؤدي حتما إلى الظلم، والكفر والظلم سيجلبان غضب الله سبحانه وتعالى المؤدي إلى انتقامه الدنيوي ثم الأخروي.

◈ أنواع الانتقام الإلهي الدنيوي:

كما ذكرنا آنفا أنواع الإنعام في القرآن، فإن الانتقام الإلهي قد ورد من أنواعه وصوره وأشكاله في القرآن الكثير، فهناك انتقام إلهي أخروي وهو لا يدخل في بحثنا هذا، وانتقام إلهي دنيوي، وهو الذي سنتناول أقسامه وصوره وأشكاله بالتفصيل فيما يلي:

* ينقسم الانتقام الإلهي الدنيوي من حيث الأمة الواقع بها إلى عدة أقسام:

◊ الانتقام العام:

وهو الذي يشمل الأمة المكذبة كلها، ولا ينجو منه سوى النبي الداعي إلى الله وأتباعه المؤمنين به، ومثال ذلك قوم نوح عليه السلام، فقد أغرقهم الله بالطوفان ولم ينج منهم أحدا حتى ابن نوح نفسه، قال تعالى عن نوح عليه السلام: {فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ} {ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ} {إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء:١١٩: ١٢١].

وقال عن ابن نوح: {وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ} {قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ} [سورة هود:٤٢، ٤٣].

وكذلك كان الانتقام من قوم عاد لما كذبوا نبي الله هود عليه السلام، قال تعالى عنه وعنهم: {فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ} [سورة الأعراف:٧٢].

وفي موضع آخر فصل هذا الانتقام فقال سبحانه وتعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} {فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ} [سورة الحاقة:٦: ٨].

وهكذا كان الانتقام الجماعي الاستئصالي في عدد من الأمم المكذبة للأنبياء والرسل، وفي سورة العنكبوت لما تحدث عن عدد من الأمم الهالكة أعقب ذلك بقول تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [سورة العنكبوت:٤٠].

وقال تعالى عن قوم فرعون: {فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ } {فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ } [سورة الزخرف:٥٥: ٦٦].

وهذا النوع من الانتقام يسميه ابن كثير بـ: "الهلاك العام"، ويرى أنه كان قبل نزول التوراة، وأنه انقطع بنزولها واستدل على ذلك بقوله تعالى: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ} [سورة القصص:٤٣].

بعد ما أنزل التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسخوا قردة؛ ألم تر أن الله تعالى يقول: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ} [سورة القصص:٤٣].(١)

وهذا الرأي لا يسلم من المنازعة؛ فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبر في كتابه عن هلاك أصحاب الفيل والانتقام منهم بالطير الأبابيل التي أرسلها عليهم من السماء(٢)، فقال سبحانه: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ} {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ} {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ} {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ} [سورة الفيل ١:٥].

ولا ينازع أحد في أنهم كانوا بعد نزول التوراة على موسى عليه السلام بزمن طويل، كما أن الله سبحانه وتعالى قال عن الانتقام الدنيوي من الكافرين: {وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ} [سورة الرعد:٣١].

فالفعل (لايزال) يدل على الاستمرار في نزول قوارع الانتقام الإلهي الدنيوي بالكافرين من السماء أو من الأرض، وابن كثير نفسه قد ذهب إلى هذا الذي قلناه فقال في تفسير هذه الآية: ("ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبًا من دارهم" أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم؛ ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [سورة الأحقاف:٢٧].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير صـ٢٦٦ (بتصرف).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٧١٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ} [سورة الأنبياء:٤٤].

قال قتادة عن الحسن "أو تحل قريبًا من دارهم" أي القارعة وهذا هو الظاهر من السياق. وعن عباس "تصيبهم بما صنعوا قارعة" قال: عذاب من السماء ينزل عليهم."(١)

كما أن في قوله تعالى: {فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} {مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ} [سورة هود:٨٣].

بيان أن الانتقام بالحجارة المسومة عقاب إلهي مستمر غير محدد بزمن، لا قبل التوراة ولا بعدها، فطالما أن هناك ظلما وظالمين، فالانتقام الإلهي الدنيوي منهم مستمر؛ حتى وإن كانت هذه الآية تتحدث عن الانتقام الإلهي من قوم لوط فإنها غير خاصة بهم؛ ولذلك قال الشوكاني في تفسيرها: (أي وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين . وهم قوم لوط . ببعيد، أو وما هي من كل ظالم من الظلمة، ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ببعيد.)(٢)

فإذا أضفنا إلى ذلك أن ماورد عن أبى سعيد الخدري هو أثر موقوف، نص على وقفه الشوكاني فقال: (أخرجه البزار، وابن جرير، وأبى حاتم، عن أبي سعيد موقوفا.)(٣)

تبين لنا أن رأى ابن كثير الذي استنبطه من الآية بانتهاء الهلاك العام بعد نزول التوراة ليس بالرأي الراجح.

ولعل الرأي الراجح في تفسير هذه الآية: (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى): أن الله يخبر أنه قد آتى موسى عليه السلام التوراة، وكذب بها فرعون كما كذبت الأمم السابقة بالكتب المنزلة كصحف إبراهيم وزابور داود •، فأهلكها الله بسبب تكذيبها، ولم تشر الآية من قريب أو بعيد إلى أن الانتقام الإلهي الدنيوي للكافرين بالإهلاك الجماعي أو الجزئي من السماء أو الأرض أو منهما معا سينقطع بنزول التوراة، والله أعلم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦٧٨/٢ (بتصرف).

(٢) فتح القدير ٢/ ٥٢٧.

(٣) جامع البيان ٥٠/٢٠، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رواه البزار موقوفا ٩١/٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

◊ والانتقام الجزئي:

وهو الذي يقع على جزء من الأمة كما نرى في انتقامه سبحانه وتعالى من أصحاب السبت وهم سبط من أسباط بنى إسرائيل احتالوا على أوامر الله سبحانه وتعالى فانتقم منهم كما قال تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ} [سورة البقرة:٦٥].

◊ الانتقام الفردي:

وهو الذي يقع على فرد بعينه لمعصيته لله سبحانه وتعالى، كما نرى ذلك في شأن قارون الذي آتاه الله الأموال الطائلة، والكنوز الضخمة فأساء القول والعمل؛ فخسف الله به وبداره الأرض، قال تعالى: {فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ} [سورة القصص:٨١].

وكذلك صاحب الجنتين الذي وردت قصته في سورة الكهف في الآيات (٤٢.٣٨)

وهذا النوع من الانتقام قد يؤجله الله سبحانه وتعالى فلا يقع في الدنيا، كما فعل مع فرعون، فقد نجاه من الغرق ليكون آية لمن خلفه من الجبابرة المتكبرين، وأجل عقابه للآخرة قال تعالى مخاطبا فرعون: {فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ} [سورة يونس:٩٢].

وينقسم الانتقام الإلهي الدنيوي من ناحية موضع الإصابة إلى قسمين:

* انتقام مادي، وهو كل ما سبق الإشارة إليه في النوعين السابقين.
* وانتقام معنوي يصيب القلوب والنفوس، نجد ذلك في قوله تعالى عن الكافرين: {خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ} [سورة البقرة:٧].

فالانتقام هنا انتقام معنوي لا حسي، وقد اختار ابن جرير ذلك مؤيدا اختياره بالحديث النبوي فقال: (أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله سبحانه وتعالى والطبع، فلا يكون إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الختم الذي ذكره الله في قوله: {خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ} نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها.)[١]

ونجد هذا اللون من الانتقام المعنوي فيما تحدثت الآيات عن المنافقين أيضا يقول تعالى: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا} [سورة البقرة:١٠] والمرض هنا هو الريبة والشك كما قال قتادة: "في قلوبهم مرض" أي: ريبة وشك، "فزادهم الله مرضا" أي ريبة وشك في أمر الله.)[٢]

ونجده أيضا في حديث القرآن عن اليهود، كما في قوله تعالى: {فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥} [سورة النساء:١٥٥].

فبسبب نقضهم للعهود والمواثيق الإلهية، وكفرهم بآيات الله وتحريفهم لها، وقتلهم النبيين: يحيى وزكريا •، وادعائهم عدم الفهم لغلف قلوبهم؛ لهذه الأسباب كلها كان الانتقام منهم من جنس عملهم وهو الطبع على قلوبهم وهو الختم الذي سبقت الإشارة إليه ٠

وأما صور الانتقام الإلهي الدنيوي ووسائله، وأشكاله فيمكننا من خلال آيات القرآن الكريم أن نرصد صورا عدة لها:

فهناك الانتقام الإلهي الدنيوي بالإغراق ومنه في القرآن ثلاث صور:

* **الإغراق بالطوفان**، وذلك بتفجير عيون الماء من الأرض، وانهماره من السماء، مثل ما حدث مع قوم نوح عليه السلام يقول سبحانه: {وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ} [سورة العنكبوت:١٤].

ويفصل أحداث الطوفان في قوله تعالى: {فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ} {وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ} [سورة القمر:١١، ١٢].

والإغراق بالطوفان أيضا، بأن يفيض النهر بمائه فيغرق ما حوله من القرى ويهلك بذلك الحرث والنسل، وكان ذلك آية من آيات موسى عليه السلام التسع إلى قوم فرعون ليؤمنوا به

---

(١) جامع البيان ٨٧/١.

(٢) فتح القدير ٩٩/١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبرسالته قال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} [سورة الأعراف:١٣٣].

والإغراق في اليم، وهو انتقام الله سبحانه وتعالى من فرعون وقومه كما أشرنا آنفا وكما قال تعالى في سورة الأعراف: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [سورة الأعراف:١٣٦].

*__الصيحة__، وهي من أشكال الانتقام الإلهي الدنيوي وإن كانت من علامات البعث أيضا ففي الدنيا انتقم الله بها من ثمود قوم صالح ومن مدين قوم شعيب: قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [سورة هود:٦٧].

وقال عن قوم شعيب عليه السلام: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [سورة هود:٩٤].

*__الصاعقة__ وسماها الله بالرجفة، وهي هزة شديدة أصابت ثمود قوم صالح، ومدين قوم شعيب، ولعلها كانت قبل الصيحة، وقيل بعدها على خلاف بين المفسرين(١)، وقال تعالى مبينا هذا اللون من الانتقام: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [سورة الأعراف:٩١].

* __التدمير__ وهو من أشكال الانتقام الإلهي فقد أصاب الله به قوم صالح بعد الصيحة قال تعالى: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [سورة النمل:٥١، ٥٢].

* الخسف كما قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ} [سورة العنكبوت:٤٠]. وقال عن قارون: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} [سورة القصص:٨١].

*__مطر السوء__، وهو مطر لا يروي أرضا ولا ينبت زرعا ولا يملأ ضرعا، وهو المطر الذي أنزله الله على قوم لوط انتقاما منهم قال الله تعالى في سورة الأعراف: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [سورة الأعراف:٨٤].

---

(١) راجع معالم التنزيل للبغوي ٢٤٨/١، وتفسير البيضاوي ٣٦/١، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٢١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم بين نوع هذا المطر في سورة هود فقال: {فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ} {مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ} [سورة هود:٨٢، ٨٣].

*الريح العقيم، أرسلها الله على عاد انتقاما منهم على تكذيبهم نبي الله هود قال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ} {مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ} [سورة الذاريات:٤١، ٤٢].

*السيول والتمزيق، وهو انتقام إلهي وقع على قوم سبأ لما أعرضوا عن منهج الله واستعملوا نعمه فيما يغضبه، فأصابهم الله بسيل جارف ومزق جمعهم شر تمزيق، قال تعالى: {فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ} [سورة سبأ:١٦]. ثم قال عنهم أيضا: {وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ} [سورة سبأ:١٩].

* الإصر والأغلال وهي من عقاب الله لبنى إسرائيل، قال تعالى: {رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا} [سورة البقرة:٢٨٦].

والإصر هو (العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله، وقيل هو شدة العمل وما غلظ على بني إسرائيل من قتل الأنفس، والمسخ قردة وخنازير)(١).

* الجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز، وهذه من أشكال الانتقام التي عاقب بها قوم فرعون وسبق أن أشرنا أحدها وهو الطوفان قال تعالى: {فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ}

{وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ} [سورة الأعراف:١٣٣، ١٣٤].

---

(١) فتح القدير ١/٣٥٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد أحصيت ثلاثين صورة من صور الانتقام والابتلاء الإلهي الدنيوي المادي والمعنوي

أصاب الله بها بني إسرائيل لما انحرفوا عن منهج الله وحرفوا كتبه، وعصوا رسله وهي: (الصاعقة، والرجز، والذلة إلا بحبل من الله وحبل من الناس، والمسكنة، والرجس والغضب، ومسخ فريق منهم قردة خاسئين، وأصابهم بقسوة القلوب، وبالخزي في الحياة الدنيا، واللعن، والعداء الإلهي، والشقاق والتمزق فما يتبع بعضهم قبلة بعض، وحبوط أعمالهم، والعذاب الشديد في الدنيا والآخرة، وطمس الوجوه، والطبع على القلوب، وجعل منهم الخنازير وعبد الطاغوت، ووضع عليهم الأغلال والآصار، وأصابهم بالعمه والصمم، وحرم عليهم كل ذي ظفر، وأخذتهم الرجفة وسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب في الدنيا، وقطعهم في الأرض، ونصر عليهم المسلمين في غزوة بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة قديما؛ فضربوا عليهم الجزية وهم صاغرين، ووصفهم بأنهم شر البرية، وسيكتب لجنده من المسلمين النصر عليهم في بيت المقدس وإساءة وجوههم... وأخيرا فقد جعلهم الله لا يفقهون أوامره، فهم كالحمير تحمل أسفارا كما في " سورة الجمعة٥".)

◈ سمات الانتقام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم.

◊ السمة الأولى:

إن الانتقام الإلهي الدنيوي هو في الحقيقة إبراز لصفة مهمة من الصفات الذات الإلهية وهي صفة العدل الإلهي، فالظالمون الطغاة، والمتجبرون العتاة لابد لهم من عقاب إلهي في الدنيا يهلكهم ويكون عبرة لأمثالهم، بل وللإنسان بصفة عامة وبيان ذلك في قوله تعالى عن آل فرعون وأمثالهم: {كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢} [سورة الأنفال:٥٢]. وقال: {كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ} [سورة الأنفال:٥٤].

يقول بعض المفكرين في بيان هذه السمة: (إن الله سبحانه لا يكل الناس إلى فلتات عابرة، ولا إلى جزاف لا ضابط له... إنما هي سنته يمضي بها قدره... هذه حقيقة، لقد أهلكهم الله بعد التكذيب بآياته. ولم يهلكهم قبلها سبحانه – مع أنهم كانوا كافرين – لأن هذه سنته ورحمته: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا.. وهو يعبر هنا عن آل فرعون والذين من قبلهم من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أمثالهم الذين كذبوا بآيات الله فأهلكهم.. بأنهم كانوا ظالمين.. مستخدمًا لفظ "الظلم" بمعنى "الكفر" أو "الشرك" وهذا هو الاستعمال الغالب في القرآن.

كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء في حياة هذا الإنسان ونشاطه؛ وتصور عدل الله المطلق، في جعل هذا التلازم سنة من سننه يجري بها قدره، ولا يظلم فيها عبد من عبيده: وان الله ليس بظلام للعبيد..)(١)

◊ السمة الثانية:

إن الانتقام الإلهي الدنيوي يهدف دائما إلى سوق العبرة والعظة لبنى البشر وهذا نجده في القرآن الكريم بصورة مباشرة كقوله تعالى بعد الانتقام من فرعون لما قال أنا ربكم الأعلى ٠ قال الله تعالى: {فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥} {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦} [سورة النازعات:٢٥: ٢٦].

فقد عاقب الله فرعون على كفره وادعائه كذبا للألوهية بعقوبتين: عقوبة دنيوية وهي الغرق وعقوبة أخروية، وهي: {يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ} [سورة هود:٩٨].

وعقب على ذلك ببيان العلة وهي الاعتبار والعظة لمن يخشى الله تعالى.

وكذلك لما انتقم الله من يهود بنى النضير فأخرجهم من ديارهم، ونصر عليهم المسلمين قال سبحانه وتعالى: {فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ} [سورة الحشر:٢]. فهذه عقوبة دنيوية قد جعلها عبرة لأولى الأبصار من البشر أيضا.

وقد يلفت القرآن القارئين له بالتفكر في أنباء السابقين والاعتبار بأحداثهم وما وقع عليهم من الانتقام الدنيوي، قال تعالى في سورة براءة: {أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ} [سورة التوبة:٧٠].

ففي هذه يرى البغوي تحذيرا للكافرين من مصير الأمم السابقة.(٢)

---

(١) القصص في القرآن ص: ١٥٣٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكم من الآيات بدأها الله سبحانه بقوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة يوسف:١٠٩].

ومن ذلك ما جاء في سورة غافر: {أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} {فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ} {فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ} {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ} [سورة غافر:٨٢: ٨٥].

وفي سورة الحج بعد أن ذكر الله انتقامه من القرى الظالمة قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ} [سورة الحج:٤٦].

يقول البيضاوي في تأويل هذه الآية: (إن في هذه الآية حث للبشر على السير والسفر ليروا مصارع الغابرين المهلكين فيعتبروا.)(١)

ويقول سبحانه وتعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ} [سورة الروم:٩: ١٠].

يقول البغوي في تفسير هذه الآية: (أو لم يسافروا في الأرض فينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا، "كانوا أشد منهم قوةً وأثاروا الأرض"، حرثوها وقلبوها للزراعة، "وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات"، فلم يؤمنوا فأهلكهم الله.)(٢)

---

(٢) معالم التنزيل ١/٧٢ وكذلك قال ابن كثير في تفسيره . ٢/ ٤٨٥.

(١) تفسير البيضاوي ١/١٣٠.

(٢) معالم التنزيل ١/٢٦٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

◊ السمة الثالثة:

إن الانتقام لا يقع من الله سبحانه وتعالى إلا بعد إرسال الرسل التي تبين للإنسان عاقبة كفره، وجحوده، وظلمه، وطغيانه، وتجبره، وجبروته، وتنكبه لمنهج الاستخلاف الإلهي في الأرض بالإفساد فيها، فقد أرسل الله الرسل تترى تبين للإنسان عاقبة نكثه للعهد الإلهي؛ لعله يؤوب إلى ربه ويستقيم على أمره، وجعل الله سبحانه وتعالى الإنذار قبل وقوع العقاب والانتقام أولى مهمات الرسل، فقال سبحانه وتعالى: {وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ} [سورة الشعراء:٢٠٨]. {رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [سورة النساء:١٦٥]. {وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [سورة الإنعام:٤٨].

وقال تعالى: {رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ} [سورة النساء:١٦٥]. وقال تعالى: {وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ} [سورة فاطر:٢٤].

ومن رحمة الله بالبشر أن يمهلهم قبل الانتقام فإذا ظلت الأمة أو الجماعة أو الأفراد الذين سيقع عليهم الانتقام سادرين في غيهم، معرضين عن دعوة ربهم مستهزئين بإنذار الرسل لهم؛ جاء هم الانتقام الإلهي الرادع، ولا يكون ذلك إلا بعد إن يمهلهم كما في قوله تعالى: {وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١} [سورة المزمل:١١].

أو يضرب لهم موعدا ينتقم منهم فيه، كقوله تعالى: {وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩} [سورة الكهف:٥٩].

أو كما قال للوط عليه السلام: {إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١} [سورة هود:٨١].

بل ربما حدد النبي . بعد علمه من الله . لقومه المعرضين عنه وعن دعوته أجلا لوقوع الانتقام منهم كما قال هود عليه السلام لقومه المكذبين: {تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥} [سورة هود:٦٥].

فالإرسال، والإنذار، والإمهال كل هذه مراحل يمر بها الإنسان قبل وقوع الانتقام الإلهي الدنيوي منه، ولا يخلو ذلك من التهديد والتخويف من سوء العاقبة في الدنيا ثم في الآخرة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

◊السمة الرابعة:

ومن رحمة الله بعباده أيضا أن يمر انتقامه من الهالكين بعدة مراحل، تبرز غالبا لمن يتتبع مراحل دعوة النبي لقومه فإنها تسير على سنن إلهية لا تتبدل ولا تتغير. وهى كما تحدثت بها آيات القرآن الكريم تبدأ بالنسيان لنعم الله وآياته، والانحراف عن طريق الحق، ثم يكون الإنذار الإلهي على لسان رسله، ثم استكبار المستكبرين من هذه الأمم عن طاعة الرسل، والاغترار بزخارف الدنيا وزينتها، والسخرية من الرسل وطلب إنزال العذاب الإلهي، والبطش بالمؤمنين وثبات المؤمنين على دينهم، ثم تكون المباعدة بين المؤمنين والمستكبرين وفى نهاية المطاف يكون الانتقام.

◊ السمة الخامسة:

وهذه المراحل المذكورة في السمة السابقة تقودنا إلى سمة أخرى من سمات الانتقام الدنيوي في القرآن الكريم، وهي أن الانتقام الإلهي الدنيوي في القرآن يمثل دائما حلقة مهمة من حلقات القصص القرآني، وهي الحلقة الأخيرة، ففي بعض مواضع القرآن نجد أن الانتقام الإلهي الدنيوي هو النهاية القصصية البائسة للكافرين والمتكبرين والمكذبين كما نرى في قصة نوح عليه السلام مع قومه ففي سورة الشعراء، قال تعالى في نهاية هذه القصة: {فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩} {ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠} [سورة الشعراء:١١٩، ١٢٠].

وفي سورة الأنبياء تتكرر هذه القصة وتتكرر معها النهاية نفسها، يقول سبحانه: {وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ} {وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ } [سورة الأنبياء:٧٦، ٧٧].

ومن خلال هذه النهاية العامة للكافرين المكذبين في هذه القصة نرى وصفا لنهاية خاصة بابن نوح الذي كان من العصاة المكذبين فكان مصيره الغرق أيضا على شاكلة من غرقوا، وفي ذلك يقول تعالى عن هذا الابن العاصي:

{وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ } {قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۖ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ } [سورة هود:٤٢، ٤٣].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد تأتى هذه النهاية المصورة للانتقام الإلهي الدنيوي منفردة في موضع قرآني دونما ذكر للقصة بأكملها على نحو ما نجد في سورة الحاقة في حديثها عن قوم عاد ففيها نجد قوله تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} {فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ} [سورة الحاقة:٦: ٨].

ففي هذه الآيات تصوير لهذه النهاية مع شيء من التفصيل لأحداثها فأداة الانتقام هي الريح الباردة العنيفة، المستمرة سبعة أيام التي تصرع الكافرين فتتركهم كأعجاز النخل الخاوية.

وقد يكون الانتقام الإلهي الدنيوي سريعا سرعة خاطفة يأتي في نهاية القصة القرآنية بصورة مجملة لا تفصيل فيها، وقد لاحظت ذلك في قصة ثمود ففي سورة الشعراء . بعد ذكر قصة ثمود . كانت النهاية على هذا النحو: {فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ} {فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء:١٥٨].

وفي سورة القمر كانت نهايتها: {إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ} [سورة القمر:٣١].

وفي سورة الشمس كانت نهايتها: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾} [سورة الشمس:١٤].

◊ السمة السادسة:

إن انتقام الله تعالى من الكافرين، والظالمين والمكذبين يختلف عن انتقام ملوك الدنيا وزعمائها، يقول صاحب المنار: (إن عذاب الله وانتقامه من الكفرة الفجرة لا يشبه انتقام ملوك الدنيا وزعمائها، إنما قضت سنته تعالى بأن يكون لكل عمل يعمله الإنسان في ظاهره أو في نفسه وضميره أثرا في نفس العامل يزكيها أو يدسيها)(١)، فالله سبحانه وتعالى يحاسب على ما أظهر الإنسان وما أخفي، ولا يقتصر حسابه على الانتقام الدنيوي، وإنما يمتد إلى الآخرة أيضا. وما يوقعه سبحانه وتعالى من انتقام دنيوي أو أخروي لا يكون إلا بعدله سبحانه، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة فصلت:٤٦].

---

(١) تفسير القرآن الحكيم ١/ ٣٩٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

✵ السمات المشتركة بين الإنعام الدنيوي والانتقام في القرآن الكريم:

١. في الحديث عن بني إسرائيل نجد الحديث عن الإنعام والانتقام يتعانقان ويبدأ الحديث غالبا بالإنعام وينتهي بعد عصيانهم وتنكرهم للنعم بالانتقام، يقول الدكتور السيد رزق الطويل:

(هناك أمر يسترعى النظر في حديث القرآن عن بنى إسرائيل، هو المزج بين مظاهر الإنعام، ومظاهر الانتقام، ليؤكد لهم أن القانون الذي يحكم هذه وتلك سنة لا تتخلف.)(١) وذكر مثالا لذلك من سورة المائدة وهو قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ} {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ} {وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ} [سورة المائدة:١٢: ١٤].

٢. ومن السمات المشتركة بين الإنعام والانتقام إن الإنعام عام شامل مطرد في الأمم والأفراد، وأما الانتقام الدنيوي فظاهر ومطرد في الأمم، وليس كذلك في الأفراد وهذه السمة ذكرها الشيخ محمد عبده في قوله: (إن الإنعام يشمل الأمة والفرد فكل فرد من أفراد الأمة قد أنعم الله عليه ظاهرا وباطنا، وأما الانتقام فإنه ظاهر ومطرد في الأمم العاصية، وأما عصاة الأفراد فقد جعل الله لهم العقوبة والانتقام في الدنيا وقد يؤخره إلى يوم الدين، وقد يجمع عليه الأمرين كفرعون فقد عاقبه الله في الدنيا بالغرق، ثم يوم القيامة:

{يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ} [سورة هود:٩٨]. وكذلك أمته فإن الله قد انتقم منهم في الدنيا بصنوف من العقوبات، وفي الآخرة هم من المقبوحين.)(٢)

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن صـ ٤٧.

(٢) تفسير القرآن الحكيم ٢٤٢/١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبحث الثالث

موقف الإنسان من الإنعام والانتقام الدنيويين في القرآن الكريم

◈ أولا: موقف الإنسان من الإنعام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم:

سبق أن أشرنا إلى أن الله سبحانه يمد بنعمه المؤمن والكافر على السواء، وإن بارك للمؤمن فيما أنعم به عليه، ومحق بركة الإنعام على الكافر وجعل الإنعام عليه استدراجا له. وفي القرآن الكريم نماذج بشرية لمن أنعم الله عليهم فاختلفت مواقفهم تجاه هذا الإنعام، فمنهم من شكر ومنهم من كفر ومنهم من كان بين الشكر والكفر وفي القرآن بيان لكل فريق من هؤلاء:

* **الشاكرون لله على إنعامه،** والشكر لله على نعمائه مطلب إلهي ففي القرآن الكريم خاطب الله عباده قائلا: {فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢} [سورة البقرة:١٥٢].

وقال: {فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ} [سورة النحل:١١٤].

بل إن الشكر هو الغاية الإلهية من الإنعام ولذلك كثيرا ما نجد في القرآن الكريم بعد ذكر النعم قوله تعالى (لعلكم تشكرون) كقوله تعالى: {وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ} [سورة المائدة:٦].

وقوله: {وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ} [سورة النحل:٧٨].

بل إن الشكر على إنعامه هو الذي يرضاه الله لعباده، ولا يرضى لهم الكفر، يقول سبحانه وتعالى: {إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ} [سورة الزمر:٧].

ولذلك كان الأنبياء على رأس الشاكرين لله على إنعامه ففي وصف نوح عليه السلام قال سبحانه وتعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا} [سورة الإسراء:٣].

ووصف إبراهيم عليه السلام بقوله: {إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ} {شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۦٓۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ} [سورة النحل:١٢٠، ١٢١].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعن لوط والمؤمنين معه قال سبحانه: {نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾} [سورة القمر:٣٥].

ويقول على لسان سليمان عليه السلام: {وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ} [سورة النمل:٤٠].

وكان محمد صلى الله عليه وسلم عندما يسأل عن كثرة عبادته يقول: ((أفلا أكون عبدا شكورا.))(١) ولكن الله سبحانه وتعالى بين أيضا في القرآن أن الشاكرين له على إنعامه قلة، وأن الكثرة الغالبة من بنى آدم سيكفرون بإنعام الله عليهم، وفي ذلك يقول سبحانه: {إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} [سورة يونس:٦٠].

الكافرون بنعم الله:

فالكفر كفران: كفر ملة، وكفر نعمة، (وإنما صار الكفر "كفران للنعمة" لأنه غطى منة الله عليه، بترك الشكر، لأن الشكر انفتاح غطاء القلب لرؤية النعم من المنعم، والكفر غطاؤه.) ولهذا وصف الإنسان في القرآن بـ "الكفور" فقال تعالى: {وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾} [سورة الزخرف:١٥]. (تنبيه على ما ينطوي عليه الإنسان من كفران النعمة، وقلة ما يقوم بأداء شكرها)(٢).

وهؤلاء الصنف من الناس ضرب الله لهم مثلا في القرآن الكريم فقال: {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ} [سورة النحل:١١٢].

فهذه القرية كفرت بنعم الله وأبت شكره فكان الانتقام الإلهي منها على نحو ما سنرى في مبحث الانتقام إن شاء الله، وأما هنا فيعننا أن نثبت أن هذا لون من ألوان السلوك الإنساني تجاه الإنعام الإلهي وهو كفران النعمة، وربما قيل: إن هذه الآية خاصة بقرية معينة وهي مكة

---

(١) صحيح البخاري باب التهجد حديث رقم (٦).

(٢) تحصيل نظائر القرآن . للحكيم الترمذي . صـ ٢٥. تحقيق حسنى زيدان . مطبعة السعادة . مصر . الطبعة الأولى . ١٣٨٩ هـ، والمفردات صـ٤٣٣، ٤٣٤ (بتصرف).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أو المدينة كما قال المفسرون . وهذا قول ضعيف لا تؤيده ألفاظ الآية، فكلمة "قرية" نكرة، والنكرة تفيد العموم، ولذلك قال البيضاوي: (وضرب الله مثلًا قريةً" أي جعلها مثلًا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا.)(١)، وقال القرطبي: (إنه مثل مضروب بأي قرية من سائر القرى كانت على هذه الصفة)(٢).

وأيدهما الشوكاني بقوله: (وقد اختلف المفسرون: هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأول وصرحوا بأنها مكة. والثاني أرجح لأن تنكير قرية يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخولًا أوليًا، وأيضًا يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلها، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها)(٣).

و كفران النعمة له في القرآن الكريم صور أخرى كـ(التبديل، والإنكار، والأعراض، والفرح، والفخر، والبطر، والافتتان) وبيانهم كما يلي:

* **المبدلون لنعم الله:** سبق أن أشرنا إلى قوله تعالى: {وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ} [سورة البقرة:٢١١].

وبينا أن نعمة الله في هذه الآية هي الإسلام، وأنه يحرم على المسلم أن يستبدلها بغيرها.

وأما التبديل هنا فإما أن يقصد به تبديل شكر النعمة إلى الكفر بها، وإما أن يكون التبديل هو تحويل النعمة نفسها إلى ضدها، وفي بيان هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ} [سورة إبراهيم:٢٨].

يقول البيضاوي في بيان معنى التبديل ههنا: (أي بدلوا شكر نعمته كفرًا بأن وضعوه مكانه، أو بدلوا نفس النعمة كفرًا، فإنهم لما كفروها سلبت منهم فصاروا تاركين لها محصلين للكفر بدلها.) وضرب لهؤلاء المبدلين مثلا فقال: (كأهل مكة، خلقهم الله تعالى، وأسكنهم حرمه وجعلهم قوام بيته ووسع عليهم أبواب رزقه وشرفهم بمحمد ‘، فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين

---

(١) تفسير البيضاوي ٤٢٣/١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧٢/١٠.

(٣) فتح القدير ٢٨٥/٣، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه باب الأذان (٨٠٤)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأسروا وقتلوا يوم بدر وصاروا أذلاء، فبقوا مسلوبي النعمة وموصوفين بالكفر.)[١]، ولا شك أن هذه الصفة تنطبق على كل من فعل مثل أهل مكة.

* **المنكرون لنعم الله:** وهذا صنف آخر من الناس يعرف نعمة الله ثم ينكرها، والإنكار لون آخر من ألوان كفر النعم، وفي القرآن الكريم بيان لذلك ففي سورة النحل بعد أن عدد الله نعما أنعمها على الإنسان بين صفة من صفات هذا الفريق من البشر وهي الكفر بنعم الله بإنكارها، يقول سبحانه وتعالى: {وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ} {وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ} {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾} [سورة النحل:٨١: ٨٣].

وفي سبب نزول هذه الآيات مشهد عملي لهذا الإنكار البشرى لنعم الله سبحانه وتعالى، فقد حكى ابن كثير: (عن مجاهد أن أعرابيًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله -أي سأله العطاء- فقرأ عليه رسول الله ﷺ: "والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا" فقال الأعرابي: نعم، قال: "وجعل لكم من جلود الإنعام بيوتا" الآية، قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك، يقول الأعرابي: نعم حتى بلغ "كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون" فولى الأعرابي، فأنزل الله "يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها" الآية)[٢].

فعلى الرغم من بيان النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الأعرابي ما أنعم الله به من نعم على خلقه، وإقرار الأعرابي بذلك إلا أنه أعرض وأنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأبى أن يسلم، وهذا يدل على أن النعمة المذكورة في قوله تعالى: (يعرفون نعمة الله) لا تعني محمدا صلى الله

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٣٤٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧٦٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عليه وسلم كما قال السدي[١]، وإنما الأولى في بيان معناها ما قال به مجاهد: (يريد ما عدد الله عليهم في هذه السورة من النعم، أي يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم وبمثله قال قتادة.)[٢]

وأما الإنكار فقد يكون بعدم قبول الإسلام دينا كما فعل هذا الأعرابي، وقد يكون غير ذلك كما قال القرطبي: (قيل يعرفون نعمة الله بتقلبهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها، ويحتمل يعرفونها في الشدة وينكرونها في الرخاء، أو يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم، ويحتمل يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم)[٣].

فترك شكر الله على نعمه، أو مقابلة هذه النعم بفعل المعاصي، أو جحدها بالألسنة كل ذلك إنكار لنعم الله تعالى.

* **المعرضون عن شكر النعم:** وهذا فريق من الناس إذا غمره الله بالنعم قابل ذلك بالإعراض عن المنعم والنأي عن طاعته، قال تعالى: {وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا} [سورة الإسراء:٨٣].

والإعراض يطلق على هيئات إنسانية تعنى في مضمونها التكبر، يقول القرطبي: (أعرض ونأى بجانبه: أي تكبر وتباعد)[٤].

وزاد الشوكاني هذا المعنى تفصيلا عندما قال: (نبه سبحانه على بيان بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبائع المذمومة فقال: "وإذا أنعمنا على الإنسان" أي على هذا الجنس بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والغنى "أعرض" عن الشكر لله والذكر له "ونأى بجانبه" النأي البعد وهو تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء هو أن يوليه عرض وجهه: أي ناحيته، والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره، ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم. والمعنى: أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي، وظفر بالمقصود نسي المعبود)[٥].

---

(١) راجع تفسير السدي الكبير صـ١٦٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠/١٤٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠/١٤٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن١٠/٢٨٠.
(٥) فتح القدير ٣/ ٣٦٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* **الفرح والفخر والبطر بنعم الله:** أما الفرح فهو (انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون في اللذات البدنية.) وهو في القرآن على وجهين: فوجه لا يرخص الله فيه ومنه قوله تعالى: {لَا تَفۡرَحۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦} [سورة القصص:٧٦].

ووجه رخص فيه فقال: {قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨} [سورة يونس:٥٨](١).

والمقصود هنا هو الوجه الأول وهو الفرح الذي لم يرخص الله فيه، وهو فرح الإنسان بالنعمة إلى الحد الذي ينسى معه شكر المنعم عليه، ومنه قوله تعالى في القرآن: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤} [سورة الإنعام:٤٤].

فالفرح في هذه الآية هو فرح الإعجاب بالنعمة، والاستطالة بها على الخلق، والطغيان بها في الأرض، وهكذا فعل قارون، فكان مصيره الهلاك لأن الله لا يقبل مقابلة إنعامه الدنيوي بهذا اللون من الفرح، وأما الفرح الذي يرخص الله فيه ويرضى به هو ما جاء في قوله تعالى: {قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨} [سورة يونس:٥٨].

وفضل الله ههنا وإن كان يعنى ما تفضل الله به على عباده من الإنعام عاجلا وآجلا، فإن كثيرا من المفسرين ذكروا في تفسير هذه الآية قول الرسول ﷺ: (بفضل الله القرآن، وبرحمته أن جعلكم من أهله)(٢).

وأما الفخر: (فإنه المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه.)(٣)، ولم يرخص الله فيه في القرآن وإنما بين أنه لا يحب كل مختال فخور فقال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨} [سورة لقمان:١٨].

---

(١) المفردات صـ٣٧٥(بتصرف).

(٢) الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٢٣٦٠) وقال عن إسناده: (ليس بالقوى) تحقيق محمد منير الدمشقي . المكتبة الأزهرية . الطبعة الثانية . ١٣٥٥ هـ.

(٣) المفردات صـ٣٧٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والفخر هنا له علاقة بالبطر والفرح المنهي عنه ولذلك يقول الشوكاني: (والله لا يحب كل مختال فخور" أي لا يحب من اتصف بهاتين الصفتين وهما الاختيال والافتخار، قيل هو ذم للفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر، وقيل إن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت في نفسه اختال وافتخر بها، وقيل المختال الذي ينظر إلى نفسه، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار)(١).

وأما البطر: فإنه (دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها، وصرفها إلى غير وجهها.)(٢)، وهو صفة من صفات بعض الناس المنعم عليهم، وسلوك من سلوكياتهم تجاه الإنعام الإلهي الدنيوي، ومن الأسباب المؤدية إلى هلاك أصحابه، وفي هذا الصدد يقول تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ} [سورة القصص:٥٨].

فهذه القرية قابلت الإنعام الإلهي بالبطر وهو الطغيان، وصرف النعمة إلى غير وجهها.

* **المفتونون بالإنعام الدنيوي:** وهناك صنف من الناس قد فتنته النعمة واغتر بها وادعى أنها من علمه وفطانته وذكائه كما فعل قارون لما فتن بالمال فقال كذبا: {قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ} [سورة القصص:٧٨].

فرد الله سبحانه وتعالى عليه هذا الزعم في قوله تعالى: {فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾} [سورة الزمر:٤٩].

فافتتان قارون بالنعمة جعله يدعى كذبا أنها من علمه ولم يدرك أن الإنعام عليه كان امتحانا له: أيطيع أم يعصى، أيشكر أم يكفر؟ ففي هذه الآية: (خبر من الله تعالى عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عزَّ وجلَّ وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله نعمة منه طغى وبغى وقال: " إنما أوتيته على علم " أي لما يعلم استحقاقي له؛ ولولا أني عند الله خصيص لما

---

(١) فتح القدير ٥/ ٢٤٩.

(٢) المفردات صـ٥٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خولني هذا، وليس الأمر كما زعم إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي)[١].

◈ ثانيا: موقف الإنسان من الانتقام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم:

سبق أن أشرنا إلى أن الانتقام الإلهي الدنيوي ينقسم إلى عدة أقسام وهي الهلاك العام، والهلاك الجزئي، والهلاك الفردي، ويمكننا أن نرصد موقف الإنسان من هذه الأقسام الثلاث من خلال ما حكاه القرآن عن فريقين من الناس:

◊ الفريق الأول:

الناجون من الكافرين من الانتقام الإلهي الدنيوي، وهم الذين عاينوا قدرة الله سبحانه وتعالى على الانتقام منهم لكنه أنجاهم ليكونوا عبرة لمن يعتبر، ومن أمثلة هؤلاء فرعون الذي أنجاه الله من الغرق ليكون لمن خلفه آية، ومن أمثلته أيضا ما حكاه الله عن المشركين الذين إذا كانوا في الفلك يعبرون بها البحار كانوا على شركهم حتى إذا أتاهم الانتقام الإلهي بالإغراق إذا هم يلجؤون إلى الله موحدين، ويعبرون عن ذلك مبينين موقفهم من الانتقام الإلهي الدنيوي.

◊ الفريق الثاني:

الذين انتقم الله منهم لعتوهم . رغم توحيدهم . عن أوامر الله، وانتهاكهم لحدوده كأصحاب السبت من بنى إسرائيل، ومثل قارون، وكصاحب الجنتين، وأصحاب الجنة، وقوم سبأ.

وقد سجل لنا القرآن الكريم موقف هؤلاء وهؤلاء من الانتقام الإلهي الدنيوي، ويتمثل ذلك إجمالا فيما يلي:

١. تغيير المعتقد، وهذا الموقف نراه بوضوح من قوم فرعون ثم من فرعون نفسه عند غرقه، فأما قوم فرعون فقد انتقم الله منهم بصور عدة قبل إغراقهم وأشدها أنه أصابهم بالرجز، وعند ذلك تراجعوا عن معتقدهم ووعدوا موسى عليه السلام بالإيمان بالله وبترك بنى إسرائيل للخروج معه، فلما كشف الله عنهم هذا الانتقام نكصوا على أعقابهم وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم، وفي ذلك قال تعالى: {وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٦٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ } {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ } [سورة الأعراف:١٣٤، ١٣٥].

وأما فرعون فقد غير دعواه الكاذبة بالألوهية بعد معاينته للانتقام الإلهي، فحكى الله على لسانه قوله لما أنجى بدنه من الغرق: {ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾} [سورة يونس:٩٠].

فهذا تغيير في المعتقد، لأن فرعون كان يعتقد الألوهية لنفسه، ويأمر قومه بذلك، ويقول لقومه: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى} [سورة القصص:٣٨]. ويقول لهم أيضا: {أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ} [سورة النازعات:٢٤].

فلما انتقم الله منه هو وجنوده بالإغراق في اليم، وتحقق فرعون من كذب دعواه، ومن قدرة الله β على الانتقام منه تراجع عن أقواله في الدنيا، وادعى الإيمان في وقت لا ينفعه هذا الادعاء، ولذلك كان الجواب الإلهي على هذه الدعوة الفرعونية: {ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾} {فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾} [سورة يونس:٩٠، ٩١].

قال ابن كثير: (فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال "الآن وقد عصيت قبل" أي أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه "وكنت من المفسدين" أي في الأرض الذين أضلوا الناس "وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون.)(١)

وهذا الموقف الفرعوني الذي يصوره أحد الدعاة بقوله: (لقد سقطت عن فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة، ولقد تضاءل وتصاغر واستخذ، فهو لا يكتفي بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. فيزيد في استسلام فيقول: وأنا من المسلمين).

فهذا الموقف . عند معاينة الانتقام الإلهي . هو موقف كل كافر ومشرك ومفسد في الأرض، يظل سادرا في كفره وشركه وفساده حتى إذا أتاه بأس الله غير موقفه وكذب نفسه

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٦٥/٢ (بتصرف).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتخلى عما اعتقده حيث لا ينفعه ذلك، وقد حكى الله عن هذا الصنف من الناس فقال: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ} {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ} [سورة غافر:٨٤، ٨٥].

٢. الإعراض والنسيان والكفر بنعمة الإنجاء من الانتقام، وهذه الصفة لا تختص بالكافرين دون سواهم، وإنما هي صفة الإنسان بصفة عامة إلا المؤمنين الذين يعصمهم الله تعالى، وفي ذلك يقول تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا} [سورة الإسراء:٦٧].

(يخبر i أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر نسوا ما عرفوا من توحيده وأعرضوا عن دعائه وحده لا شريك له "وكان الإنسان كفورًا)(١).

٣. المكر والبغي في الأرض بغير الحق بعد وقوع الانتقام، وهذا بعد النسان والإعراض، والعودة مرة أخرى لممارسة المكر والبغي في الأرض وفي هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى: {وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} {هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ} {فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة يونس:٢٢، ٢٣].

والآيات تكشف عن عدة طبائع إنسانية حيال الانتقام الإلهي الدنيوي، منها أن من اعتاد منهم على تكذيب الرسل والاستهزاء بهم وبما أرسلوا به من شرائع لا يرعووا من نزول الشدائد بهم، ولا يتوبوا إذا من الله عليهم بالنعم بل هم في غيهم سادرون، يمارسون مكرهم فيما يرون من آيات الله البينات ٠ ومنها بيان لحالة الخوف الإنساني وقت وقوع الانتقام الإلهي الدنيوي فإذا رأى الإنسان المشرك الانتقام الإلهي في الدنيا تخلى عما يعبده من الآلهة غير الله فلجأ

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٧١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إليه ودعاه أن يكشف ما وقع به، فإذا استجاب الله له ونجاه من ظلمات البحر أو أهوال البر عاد مرة أخرى إلى البغي في الأرض والسير فيها سيرة المفسدين.

٤. محاولة الهروب ركضا والاعتراف بالظلم، يقول سبحانه وتعالى مبينا هذا الموقف: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ} {فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ} {قَالُواْ يَوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} {فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ} {لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾} [سورة الأنبياء:١١: ١٣].

فهذه الآيات ترسم لنا صورة للانتقام الإلهي الدنيوي من الظالمين، مع التشخيص المقصود لحركتهم وقت وقوع هذا الانتقام، فهم يفرون هاربين مهرولين طالبين النجاة، داعين على أنفسهم بالويل والثبور معترفين بالظلم الذي مارسوه في حياتهم مع أنفسهم، ومع غيرهم لكن لم يكن هذا الاعتراف لينفعهم وقت نزول الانتقام بهم، ولذا قال سبحانه: {فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ}.(١)، ومن ذلك ما حكاه الله عن الكافرين والمشركين لما أوقع بهم انتقامه الدنيوي، قال تعالى: {حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ} {لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ} [سورة المؤمنون:٦٤، ٦٥].

فالعذاب المذكور في الآية هو الانتقام الإلهي الدنيوي عند كثير من المفسرين، بل رجح الشوكاني ذلك فقال في تفسيرها: (قيل: المراد بالعذاب عذاب الآخرة، ورجح هذا بأن ما يقع منهم من الجؤار إنما يكون عند عذاب الآخرة، لأنه الاستغاثة بالله ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا في سني الجوع. ويجاب عنه بأن الجؤار في اللغة الصراخ والصياح وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عند ما عذبوا بالسيف يوم بدر، وبالجوع في سني الجوع، وليس الجؤار ها هنا مقيد بالجؤار الذي هو التضرع بالدعاء حتى يتم ما ذكره ذلك القائل)(٢).

(١) راجع القرطبي ٢٤٣/١١، وابن كثير ٣/ ٢٣٥، والشوكاني ٣/ ٥٧٣.

(٢) فتح القدير ٣/ ٧٠٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويتكرر هذا المشهد مع أصحاب الجنة الظالمين لأنفسهم ولغيرهم، الذين ذكرهم الله في قوله: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ {وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾} {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾} {فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾} {فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾} {أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ} {فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾} {أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴿٢٤﴾} [سورة القلم:١٧: ٢٤]

إن الانتقام ههنا انتقام مادى، وهو هلاك الجنة العامرة الفيحاء بسبب ظلم أصحابها وإصرارهم على عدم إطعام الفقراء والمساكين منها، وعدم الاستثناء في ذلك، فلما حل بها الانتقام الإلهي ليلا وهم لا يشعرون أقبلوا وقد عقدوا النية السيئة الخبيثة على حرمان سواهم مما أنعم الله به عليهم، فكان الجزاء من جنس العمل، فانتقم الله منهم بهلاكها، وذكرهم أخيرهم بالتوبة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، فما كان منهم إلا التلاوم، والاعتراف بظلمهم وطغيانهم، وقد اختلفوا عن غيرهم ممن وقع عليهم الانتقام الإلهي الدنيوي فقالوا: {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾} [سورة القلم:٣٢]. ولهذا قال الحسن: (قول أهل الجنة "إنا إلى ربنا راغبون" لا أدري إيمانًا كان ذلك منهم، أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة، فيوقف في كونهم مؤمنين. وسئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتني تعبًا. والمعظم يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا)(١).

ومع هذا الاختلاف في إيمانهم إلا أن الله أنهي قصتهم بقوله تعالى: {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾} [سورة القلم:٣٣] فالله أعلم.

٥. الندم على الكفر بعد وقوع الانتقام الإلهي الدنيوي، وأوضح مثال على ذلك ما ورد في سورة الكهف من حوار بين رجلين: أحدهما مؤمن بالله والآخر كافر به، وقد أنعم الله على هذا الكافر بجنتين عامرتين مثمرتين فاغتر بهما حتى قاده ذلك إلى الكفر بالمنعم، وحكى عنه الله سبحانه وتعالى ذلك فقال: {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [سورة الكهف:٣٤: ٣٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢١٤/١٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد حاول المؤمن أن يذكر الكافر بنعم الله عليه فيما أولاه من جنتيه، والرجوع بعد فناء الدنيا إليه فقال بعد سمع منه الكفر، ورأى منه الإعراض: {قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾} {وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾} {فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾} {أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾} [سورة الكهف:٣٧: ٤١].

لكن الكافر أبى، بل وادعى أن ما أعطاه الله من نعم في الدنيا ما هو إلا كرامة له وتبجيل لمكانته، فكان الانتقام الإلهي الدنيوي بإهلاك جنتيه: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾} [سورة الكهف:٤٢].

ومن هذا المشهد يمكننا أن نرصد مما يتصل بموقف الإنسان من الانتقام الإلهي الدنيوي ما يلي:

* إن هذا المشهد تتعانق فيه الآيات التي تتناول الإنعام الإلهي مع الآيات الى تتناول الانتقام الإلهي الدنيوي من خلال حوار بين مؤمن بالله تعالى وكافر به فترصد سلوك اثنين مختلفين في الاعتقاد تجاه الإنعام والانتقام الإلهي الدنيويين، فأما المؤمن فإنه يعلم أن مصدر الإنعام هو الله تعالى، وأما الكافر فيرى أن ما أعطاه الله من نعم إنما ذلك لمكانته وكرامته على الله فظلم نفسه وكفر بربه.

* إن المؤمن توقع الانتقام الإلهي الدنيوي من صاحبه الكافر، وذلك بهلاك جنتيه فقال: {فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾} {أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾} [سورة الكهف:٣٧: ٤١]. **وقد تحققت فراسة المؤمن.**

* ندم الكافر على ما قدمت يداه، بعد وقوع الانتقام حيث لا ينفع الندم وهو مشهد يتكرر ممن وقع عليهم الانتقام الإلهي الدنيوي، (وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء. والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة. وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب. وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الآن بربوبيته ووحدانيته ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركا ينكره الآن، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان).

٦. الاعتبار والاتعاظ بما وقع من انتقام إلهي دنيوي للعصاة والمخالفين، وهذا الموقف نراه في قصة قارون التي جاء فيها: {إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦} [سورة القصص:٧٦]. {وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧} [سورة القصص:٧٧].

فلما لم يسمع قارون نصح الناصحين له بعدم البطر والأشر بما أنعم الله عليه من الكنوز، وأن يعمل لآخرته كما عمل لدنياه، وأن يحسن إلى غيره ممن يستحق الإحسان، ولا يستعمل نعم الله في الإفساد في الأرض، وتكبر وأخذه الغرور بالمال والكنوز، ورد نصح الناصحين، بل زاد قائلا: {إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ} [سورة القصص:٧٨]. وظل متماديا في غروره حتى صار فتنة لمن سواه من الناس، وانقسم الناس حيال ما أنعم الله عليه من نعم إلى فريقين:

الفريق الأول: وهم الذين يريدون الحياة الدنيا فقالوا: {يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩} [سورة القصص:٧٩].

والفريق الثاني: وهم الذين أوتوا العلم ولم يغتروا بزخارف الدنيا قالوا: {وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠} [سورة القصص:٨٠].

وكان نتيجة غرور قارون وما سببه لبني قومه من الفتنة والانقسام أن فصل الله في الأمر فانتقم من قارون وأتباعه بالخسف فقال تعالى: {فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١} [سورة القصص:٨١].

ولم يرد في سياق الآيات تعقيب أولى العلم المؤمنين على ما حدث لقارون لأنهم كانوا على توقع للانتقام الإلهي منه لما رأوه منه فساد وإفساد، وإنما ذكرت الآيات موقف الفريق الأول الذي يريد الدنيا وزينتها، وهم الذين قال الله عنهم: {وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢} [سورة القصص:٨٢].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقول المفسرون في بيان موقفهم هذا: (يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود "إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب" ولولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله، ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الاخرة)(١).

وفي قصة إسلام عكرمة بن أبي جهل ما يبين اتعاظه من الانتقام الإلهي، إذ لما ذهب فارًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة فذهب هاربًا فركب في البحر يدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده فقال عكرمة في نفسه والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره اللهم لك علي عهد لإن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يدي محمد فلأجدنه رؤوفًا رحيمًا, فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه)(٢).

٧. الدعاء واللجوء إلى الله لرفع الانتقام، ومثال ذلك ما كان من موسى عليه السلام لما وقعت الرجفة على فريق من بنى إسرائيل ممن واقعوا المعاصي والمخالفات، وفي ذلك يقول تعالى: {وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم

(١) ابن كثير ٥٣١/٣ وقال في بيان معنى: (ويكأن): (وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا ويكأن، فقال بعضهم: معناه ويلك اعلم أن، ولكن خفف فقيل ويك ودل فتح أن على حذف اعلم، وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة ويكأن، والكتابة أمر وضعي اصطلاحي، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم. وقيل معناها ويكأن أي ألم تر أن، قاله قتادة. وقيل معناها وي كأن ففصلها وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه، وكأن بمعنى أظن وأحتسب. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنها بمعنى ألم تر أن.)

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة. ابن الأثير . ج٤/صـ٥ . المكتبة الإسلامية . مصر . الطبعة الأولى . ١٢٨٠ هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِّن قَبۡلُ وَإِيَّيَ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥} [سورة الأعراف:١٥٥].

وقد اختلف المفسرون في بيان ما ارتكبه هؤلاء الذين انتقم الله منهم بالرجفة(١)

ولن نخوض في هذا الخلاف في بحثنا هذا، وإنما يعنينا ما قالوه على لسان موسى عليه السلام لما رأى الرجفة تأخذ هذا الفريق وهو معهم فقال: {قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّيَ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ} [سورة الأعراف:١٥٥].

ثم شرع في الدعاء والابتهال إلى الله تعالى أن يغفر لهم ويرحمهم، ويرفع عنهم هذا الابتلاء.

يقول بعض العلماء إن موسى عليه السلام لجأ إلى ربه قائلا: (إن الأمر إلا أمرك وإن الحكم إلا لك فما شئت كان، تضل من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك والحكم كله لك، لك الخلق والأمر أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين)(٢) .

(١) راجع تفسير البغوي ٢٨٦/١.

(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٤٢٢، وتفسير القرآن العظيم ٧١/٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الخاتمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد تناولت في هذا البحث موضوع (سمات الإنعام والانتقام الدنيويين في القرآن الكريم) ويتكون من مقدمة وثلاثة مباحث وهذه الخاتمة، ثم قائمة المصادر والمراجع.

وفي المقدمة تحدثت عن أهمية الموضوع، ومنهج تناوله، والهدف المرجو الوصول إليه من خلال بحثه.

وفي المبحث الأول الذي جعلته عن (سمات الإنعام الدنيوي في القرآن الكريم) تناولت فيه بالبيان معنى الإنعام الدنيوي في القرآن لغة واصطلاحا، فأما لغة: فرجحت أن الإنعام في القرآن بمعنى النعمة، معتمدا في ذلك على ما قاله اللغويون في مصادرهم كابن منظور والمناوي وغيرهما، وأما اصطلاحا فهو ما أعطاه الله للعبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه، وهو ظاهر وباطن، ولا يمكن حصره.

وتناولت في هذا المبحث أيضا أقسام الإنعام المذكورة في القرآن، وهما قسمان كبيران: الإنعام الأخروي ولا يدخل في مجال بحثنا هذا، والإنعام الدنيوي ويندرج تحته الإنعام الظاهر والإنعام الباطن وتحت كل منهما أصنافا لا تحصى من النعم.

وبعد الحديث عن أقسام الإنعام الدنيوي في القرآن تناولت سماته فرصدت منها تسع سمات هي:

١. مصدر النعم كلها هو الله سبحانه وتعالى.
٢. نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان لا يمكن حصرها.
٣. لا علاقة بين إنعام الله الدنيوي على البشر وبين طاعتهم أو معصيتهم.
٤. من أنعم الله عليه بنعمة الإسلام والإيمان يحرم عليه تبديلها بضدها.
٥. سمة التحول المشروط للنعم الإلهية.
٦. الشكر من وسائل زيادة النعم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٧. الإنعام وسيلة للابتلاء أو للفتنة في حق المؤمنين، ووسيلة للاستدراج في حق الكافرين.

٨. الإنعام الدنيوي الإلهي منه ما تحقق لتحقق أسبابه، ومنه ما هو موعود ولم يتحقق بعد.

٩. إن الأنبياء قد عمهم الله بالنعم وجعل لبعضهم نعما خاصة لا يشاركهم فيها أحد.

والمبحث الثاني جعلته عن (سمات الانتقام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم) وتناولت فيه تعريف الانتقام لغة: وهو المكافأة بالعقوبة، وبينت أن من بين أسماء الله سبحانه وتعالى اسم (المنتقم) وليس من بينها اسم (المنعم) وحاولت التماس السبب في ذلك.

وأتبعت ذلك بعرض لأسباب الانتقام الإلهي الدنيوي في القرآن الكريم وهي:

(الكفر، والتكذيب، والظلم، والترف، والترف، والبطر، والاغترار بالقوة، والتكبر، والمكر والطغيان، والعدوان في الأرض بغير الحق، وإيثار العمى على الهدى، والفساد والإفساد في الأرض، والعتو عن أوامر الله، والمعاصي بصفة عامة.)

ثم تناولت بعد ذلك أنواع الانتقام الإلهي الدنيوي الواردة في القرآن الكريم وهي:

(الانتقام العام وهو الهلاك العام للأمة الكافرة والذي سماه القدماء كابن كثير بـ (الهلاك العام) وقالوا بانتهائه، وقد ناقشنا قولهم هذا وبينا عدم ترجيحه، والانتقام الجزئي، وهو الذي يقع على جزء من الأمة كأصحاب السبت مثلا، والانتقام الفردي وهو الذي يقع في الدنيا أو يؤجل إلى الآخرة، وكل ذلك انتقام مادي، وإلى جانبه . بين البحث . الانتقام المعنوي وهو الذي يصيب القلوب والنفوس، كالذي يصيب المنافقين، وأهل الكتاب، ومن على شاكلتهم.

وعرضت صور الانتقام الإلهي الدنيوي المذكورة في القرآن الكريم فذكرت منها:

(الإغراق، والصيحة، والصاعقة، والتدمير، ومطر السوء، والريح العقيم، والسيول، والتمزيق، والإصر، والأغلال، والجراد والقمل والضفادع والدم، والرجز، وقد أحصيت ثلاثين صورة من صور الانتقام والابتلاء الإلهي الدنيوي التي وقعت على بنى إسرائيل) .

وفي هذا المبحث تناولت أيضا سمات الانتقام الإلهي الدنيوي وذكرت منها:

١. أن الانتقام الإلهي الدنيوي يظهر العدالة الإلهية.

٢. أنه يهدف إلى سوق العبرة والعظة لبني البشر جميعا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣. لا يقع الانتقام الإلهي الدنيوي إلا بعد الإرسال والإنذار والإمهال.

٤. وأنه يسير على سنن إلهية لا تتبدل ولا تتغير.

٥. وأنه يمثل غالبا الحلقة الأخيرة في كثير من القصص القرآني عن الغابرين.

٦. وأنه يختلف عن انتقام ملوك الدنيا.

ومن السمات المشتركة بين الإنعام والانتقام الدنيويين في القرآن الكريم رصدت:

(تعانق الإنعام والانتقام الدنيويين في القرآن في الحديث عن بنى إسرائيل، وأن الإنعام الدنيوي يشمل الفرد والأمة، وأما الانتقام فإنه مطرد في الأمم وقد يؤجل في حق الأفراد إلى الآخرة.)

وأما في المبحث الثالث . الذي جعلته عن مواقف الإنسان من الإنعام والانتقام الدنيويين كما سجلها القرآن الكريم . فقد كشف البحث التباين في مواقف الإنسان تجاه الأمرين: فأما مواقفه تجاه الإنعام فهناك (الشاكرون لنعم الله، ويقابلهم الكافرون بها، وهم أصناف أحصيت منهم: المبدلين لنعم الله، والمنكرين لها، والمعرضين عن شكرها، والفرحين والبطرين والمفتونين بها)

وكذلك تعددت المواقف الإنسانية وتباينت تجاه الانتقام الإلهي الدنيوي فهناك:

(المغيرون لمعتقداتهم بعد رؤيتهم للانتقام الإلهي الدنيوي، والمعرضون الناسون لنعمة الإنجاء من الانتقام، والماكرون الباغون في الأرض بعد الانتقام، والنادمون على الكفر المتلاومون على ذنوبهم، وفي مقابل كل هؤلاء كان هناك المعتبرون والمتعظون بالانتقام الإلهي الدنيوي.)

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعلنا من الشاكرين لإنعامه الناجين من انتقامه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المصادر والمراجع

١. الاتقان في علوم القرآن . السيوطي تحقيق فواز أحمد زمرلي . دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى . ١٤٢٤ هـ
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الحكيم . لأبى السعود . دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان . د٠ت
٣. أسباب النزول للواحدي . دار الهلال . بيروت . لبنان . الطبعة الثانية . ١٩٨٥م
٤. أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف . عبد الحميد محمود طهماز . دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى . ١٤١٢ هـ
٥. الأسماء والصفات . البيهقي . مكتبة جدة . المملكة العربية السعودية . ١٤١٣ هـ
٦. الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة . محمد بن عبد الملك الطائي . تحقيق د/ محمد حسن عواد . دار الجيل . بيروت . الطبعة الأولى . ١٤١١ هـ
٧. التبيان في تفسير غريب القرآن . شهاب الدين الهائم المصري . تحقيق د/ فتحي أنور الدابولي . دار الصحابة . مصر . الطبعة الأولى . ١٩٩٣م
٨. تحصيل نظائر القرآن . للحكيم الترمذي . تحقيق حسنى زيدان . مطبعة السعادة . مصر . الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ
٩. وتحفة الذاكرين للشوكاني صـ ٧٣، ٧٤. المكتبة العصرية . بيروت . لبنان . ١٤٢٢ هـ
١٠. تفسير أسماء الله الحسنى . أبو إسحاق الزجاج . تحقيق أحمد يوسف الدقاق . دار الثقافة العربية . دمشق . الطبعة الأولى . ١٩٧٤م
١١. تفسير البيضاوي . تحقيق عبد القادر حسونة . دار الفكر . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى . ١٤١٦
١٢. تفسير السدى الكبير جمع وتوثيق ودراسة . محمد عطا . مصر . دار الوفاء . ١٤١٢ هـ
١٣. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار . محمد رشيد رضا . دار المعارف . بيروت . لبنان . د٠ت
١٤. تفسير القرآن العظيم . ابن كثير . دار الحديث . القاهرة . الطبعة الثانية . ١٤١٠ هـ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٥. التوقيف على مهمات التعاريف . المناوي . تحقيق د/محمد رضوان . دار الفكر . دمشق . الطبعة الأولى . ١٤١٠ هـ
١٦. تيسير مصطلح الحديث . د /محمود الطحان . دار المعارف . الرياض . الطبعة التاسعة . ١٤١٧ هـ.
١٧. جامع البيان عن تأويل القرآن . للطبري . دار الكتب العلمية . بيروت . لبناـ ١٤١٣ هـ
١٨. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . دار الريان للتراث . مصر . الطبعة الرابعة. ١٤٠٧ هـ
١٩. الحسنة والسيئة . ابن تيمية . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . د٠ت.
٢٠. رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ابن تيمية . تحقيق صلاح الدين المنجد . دار القاسم . الرياض . ١٤٠٠ هـ.
٢١. روح المعاني . الألوسي . دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان . الطبعة الرابعة . ١٤٠٥ هـ.
٢٢. زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزى١/٣٦٨ . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . لبنان ١٤١٤ هـ.
٢٣. السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد د/ عبد الكريم زيدان . مؤسسة الرسالة . بيروت . لبنان . الطبعة الثالثة . ١٤١٩ هـ.
٢٤. سنن الله في المجتمع من خلال القرآن . د/محمد صادق عرجون . منشورات العصر الحديث . جدة .١٣٩١ هـ
٢٥. سنن الترمذي . الترمذي . تحقيق أحمد شاكر . مطبعة الأزهر . القاهرة . ١٣٥٠ هـ
٢٦. شعب الإيمان . البيهقي . طبعة الحلبى . مصر . ١٣٧٢ هـ
٢٧. صحيح البخاري . الإمام البخاري . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . د٠ت
٢٨. صحيح مسلم . الإمام مسلم بن الحجاج . دار الكتب العلمية . بيروت . د٠ت
٢٩. فتح القدير . الشوكاني . دار الوفاء . مصر . الطبعة الأولى . ١٤١٥ هـ
٣٠. فضيلة الشكر لله على نعمته . أبو بكر الخرائطي . تحقيق محمد مطيع الحافظ . دار الفكر . دمشق . سوريا . الطبعة الأولى . ١٤٠٢ هـ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣١. الكافي لمن سئل عن الدواء الشافي . ابن القيم . المكتبة العصرية . بيروت . لبنان . ١٤٢٢ هـ
٣٢. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . الزمخشري . دار المعرفة . بيروت . لبنان . د٠ت
٣٣. لسان العرب . محمد بن منظور . دار صادر . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى . د٠ت
٣٤. المسند . الإمام أحمد بن حنبل . طبعة إحياء الكتب العربية . بيروت . لبنان . د٠ت
٣٥. مع القرآن . د/ أحمد الحوفي . مكتبة نهضة مصر . مصر . ١٣٩١ هـ
٣٦. معالم التنزيل . البغوي . تحقيق خالد العك . دار المعرفة . بيروت . لبنان . الطبعة الرابعة . ١٤١٥ هـ
٣٧. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي . دار الفكر . بيروت . لبنان . د٠ت